محمد ديب

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

الدار الكبيرة



روايات الهلال

روايات الهـــلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٦٢ ـ أكتوبر ١٩٧٠ ـ شعبان ١٣٩٠

No. 262 — October 1970

رئيس مجلس الإدارة : **أحمد بهاء الدين**

رئيس التحرير : **رجاء النقاش**

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم ـ عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ فى سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، فى الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشـــتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى الجمهورية العربيـة المتحـدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى ســائر أنحاء العالم • ونصف دولارات أو ٤٠ شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى « ج٠ع٠م » ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضـــاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون : ٢٠٦٢٠ « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشـــــة
الفنان هبــة عنايت

الدار الكبيرة

بقلم

محمد ديب

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

دار الهلال

مقدمة المترجم

فى عام ١٩٥٣ قامت مجلة الاخبار الادبية Les Nouvelles Littéraires باستفتاء حول هذا السؤال : « هل هناك مدرسة أدبية شمال أفريقية ؟ » وواضح من السؤال أن واضعه يتصور أن الادب الذى ينتجه كتاب شمال افريقية باللغة الفرنسية انما هو جزء من الادب الفرنسى ، ولكنه يتميز بطابع خاص يجعله خليقا بأن يعد مدرسة قائمة بنفسها من مدارس الادب الفرنسى .

وكانت الأجوبة التى أجاب بها كتاب شمال افريقية عن هذا السؤال تشير جميعها الى أن تسمية الادب بأنه مدرسة جديدة من مدارس الادب الفرنسى هو اطلاق اسم خطأ على واقع لا شك فيه ، هو هذا الازدهار الكبير فى أدب المغرب العربى عامة ، وفى أدب الجزائر خاصة . ومعنى ذلك أن هذا الادب المغربى ليس من الادب الفرنسى فى شىء ، وانما هو أدب عربى كان مضطرا الى استعارة اللسان الفرنسى ، لظروف يعلمها الفرنسيون قبل غيرهم . فالى هذا أشار محمد ديب ، كاتب الروايات الثلاث التى نقدم « ترجمتها » العربية الان (١) حين رد على ذلك السؤال بقوله : « بل قولوا ان أدبا قوميا يظهر الان فى المغرب عامة وفى الجزائر خاصة . غير أن الامر الذى له دلالة بليغة هو أن هذا الادب يكتب باللغة الفرنسية فى بلاد ذات تراث ثقافى اسلامى لا تزال تحاول ، ولو فى كثير من العناء ، أن تقدم انتاجا أدبيا باللغة العربية » .

أما هذه الدلالة البليغة التى يشير اليها محمد ديب فهى أن هؤلاء الكتاب العرب قد عرفوا فرنسا بأساليب التجهيل التى اتبعتها فى الجزائر وهى أن تنزع منهم أداة التعبير باللغة الأم ، وان تضع بين أيديهم

(١) هذه الرواية الاولى من الثلاثية وفى الشهرين القادمين تصدر رواية « الحريق » ورواية « النول » فى سلسلة روايات الهلال وبذلك تتم الثلاثية .

اداة أخرى هى اللغة الفرنسية ، لا حيلة لهم فى الاعراض عنها اذا أرادوا أن تدور السنتهم بكلام أو أن تجرى أقلامهم بكتابة .

ما هنا مجال الحديث عن الاساليب التى اتبعتها فرنسا فى الجزائر من أجل أن تنسى شعب الجزائر لغته ، وهيهات ! فلهذا مقام آخر . ولكننا نحرص فى هذه العجالة على أن نذكر أن هؤلاء الكتاب الذين استعاروا اللسان الفرنسى للافصاح عن خلجات القلب العربى ، وأفكار الذهن العربى ، وصبوات الارادة العربية ، يشعرون شعورا قويا بأنهم من ذلك فى مأساة .. فى مأساة ذات وجوه عدة ليس أخطرها شأنا أن أحدهم يتمنى أن ينطق باللغة التى تتفق وسمرته ، وأن يكون عربى اللسان كما هو عربى الوجه واليد والقلب ، ولا لأنهم يخجلون من الكتابة بلغة هى لغة المستعمر العدو ، بل أخطرها شأنا احساسهم بأن هناك ارتباطا بين مشاعرهم وأفكارهم وأحلامهم العربية وبين اللغة العربية التى كانت تستطيع وحدها أن تعكس هذه المشاعر والافكار والاحلام عكسا صادقا يتوافر فيه كل ما ينبغى توافره فى التعبير الادبى من انسجام خفى بين المعنى واللفظ ، بين تموجات العاطفة وموسيقى العبارة ، بين لطائف الفكر وتثنيات الاسلوب ، بين ايقاع النفس ونبرات اللسان ، وذلك ما عجزوا عنه أو أعجزوا . فكان بهم ذلك الضيق الذى يأخذ بخناق من يحس أن ما يجرى به لسانه دون ما تضطرب به نفسه غنى وقوة وعمق ، أو ذلك الذى يهم بأن يقول شيئا يزدحم به فكره ولكن لسانه معقود .. ومن أجل ذلك أيضا كان بهم ذلك الحنين الاسيان الذى يذكرنا بما قد تشعر به نفس فارقت جسمها فهى تهوم فى عذاب اللانهاية تبحث عنه نائحة نادبة ولا تجده ، أو بما يمكن أن يشعر به طفل فصل عن أمه فهو ما ينفك سائلا عنها وجوه أمهات أخريات تريد احداهن أن تحتضنه ولكنه لا يرى فيها أمه ، فهو يعرض عنها ، أو يستسلم لها على مضض وفى حسرة .

وليس الربط بين الأم واللغة الام من باب الجموح فى الخيال . فاللغة التى خاطبت بها الأم ابنها أول عهده بالكلام وأول عهده بتفتح الوعى وانبجاس المشاعر واغتناء العواطف تظل هى اللغة التى تتصل بالقلب والفكر والخيال جميعا ، اتصالا لا انفصام له . ان عواطف

الطفولة موصولة الاسباب بالشخصية كلها كما يعلمنا علم النفس .

فلا عجب ، والامر كذلك ، أن يكون أبرز وجوه المأساة التى يحسها أدباء الجزائر أنهم محمولون على الكتابة بلغة ليست هى اللغة التى خلقت لتعبر عنهم .

وليس يعزيهم عن هذا أن يكونوا قابضين على ناصية هذه اللغة الفرنسية ، وأنها بين أيديهم طيعة طواعية تشبه أن تكون طواعية المذلة ، وأنهم بتصريفها فيما يريدون أن يصرفوها فيه من وجوه التعبير شعرا ونثرا وقصة وفلسفة يخجلون كبار أدباء فرنسا . فان ذلك كله لا يغنيهم عن الانفاس التى كانوا يتمنون أن تخرج من صدورهم فتحرك لهوات انما خلقت لتتحرك بها ، لا ولا يغنيهم عن نفض مشاعرهم بلغة هى التى هدهدتهم بها أمهاتهم فى المهد فارتبطت بأعمق ما فى نفوسهم .

ومن أجل ذلك نرى الشاعر مالك حداد يصيح ذات يوم صيحته الموجعة فى احدى قصائده قائلا : أنا أرطن ولا أتكلم ، ان فى لغتى لكنة ، اننى معقود اللسان .. ويسمعه نقاد الادب فى فرنسا الذين قرأوا شعره فأحلوه بلغته الفرنسية الرائقة فى قمة ، فيحملقون ويقولون : ما هذا التواضع ، ان لك لفرنسية رائعة . ولكن مالك حداد يظل يصيح صيحته الموجعة : أنا أرطن ولا أتكلم ، ان فى لغتى لكنة ، اننى معقود اللسان .. أنا لا أغنى ، أنا لا أغنى .. فلو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا . « نعم ، يا أراجون ، هذه هى مأساة اللغة .. لو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا » . ذلك أن أراجون كان قد كتب يقول : « اننى أفهم مأساتهم ، مأساة أن يروا أدبهم « مترجما » ، قد فقد أصداءه العميقة أو كاد » . « نعم ، يا أراجون ، هذه هى مأساة اللغة » . « لقد شاء الاستعمار أن يكون فى لسانى آفة ، أن أكون معقود اللسان . » . « لا تلمنى يا شاعر ، يا صديقى اذا لم يطربك صداحى » . لقد كان مالك حداد ينادى أمه فى طفولته بقوله : يا ما ، وهو يسميها الان فى شعره : «Ma Mère» أماه ! ياما ! هل يمكن ان يكون اسمك «Ma Mère»

فكذلك يحس أدباء الجزائر الذين أراد الاستعمار أن يكون فى لسانهم عقدة ، كذلك يحسون بالمأساة احساسا عميقا اليما .. انهم

من بعدهم عن العربية فى غربة موحشة .

ولقد انصف ذلك الناقد الفرنسى الذى قال فى مقدمة كتبها لاحدى روايات (كاتب ياسين) ما فحواه : يجب أن نعد هذا الكتاب رواية عربية مترجمة الى اللغة الفرنسية ، لا لأن أبطالها عرب ، ولا لان أحداثها تجرى فى أرض عربيـــــة ، ولا لأن مدارها على الآلام التى يتحملها العرب فى الجزائر وعلى الآمال التى تجيش فى صدورهم ، بل أولا وقبل كل شىء لان العقل الذى أنجبها عقل عربى ، له أسلوبه الخاص فى كل شىء ، فى النظر الى الامور ، فى الاحساس بالمشكلات ، فى معاناة الحياة ، بل حتى فى تصور الزمان والمكان .

والفاجعة ، بعد ، عند من يترجم الى العربية آثار كتاب الجزائر المكتوبة بالفرنسية انه يحس بأنه لا يرد الى الاثر شيئا مما كان يمكن أن يكون له من رواء لو كتب بالعربية ، وانما هو يفقده مزيداً من ذلك الرواء ، فالاثر قد ضاع منــــه شىء مرتين : مرة حين كتب بالفرنسية ، ومرة حين ترجم عن الفرنسية .

واذا كان لا بد من كلمة عن روايات محمد ديب الثلاث التى نقدم « ترجمتها » الى العربية الآن ، (وهى فى الحق رواية واحدة من ثلاثة أجزاء) فخير ما نفعله هو أن نستمع الى محمد ديب نفسه يتحدث فى كلمة بعث بها الينا لتكون بمثابة تقديم للطبعة العربية لرواياته :

« كان لا بد للسنين المائة والثلاثين التى قضتها فرنسا فى «تمدين» جزائرنا من أن تؤتى ثمراتها . والحق أنها قد آتت هذه الثمرات ، فيالها من ثمرات ! ستعرفون هذه الثمرات : ان وصفها هو موضوع هذه الروايات الثلاث . غير أننى أحس ــ وا أسفاه ــ أن اللوحة التى رسمتها لاتبلغ من السعة كل ما كان ينبغى أن تبلغه . كان هناك أشياء كثيرة مفرطة فى الكثرة يجب تصويرها . وكان تصويرها يحتاج الى موهبة . وقد اضطررت أيضا الى حذف عدد من العناصر حرصا منى على أن يصدقنى القارىء ، ذلك أننى وجدتنى أمام وقائع كثيرة لا يصدق العقل أن تقع ... »

لقد قالها محمد ديب بلسانه : ان رواياته هذه انما هى لوحة . ان محمد ديب لا يلفق قصة يتسلى بقراءتها الرافلون . انه يغمس ريشته ، ريشة الرسام الصادق ، فى الدم والعرق والعذاب والجنون

والحكمة والتمرد والمرض والتناقض والثورة ، فيخرج منها ألوانا يصبغ بها لوحته . غير أنه لا يجعجع ولا يصرخ ولا يحاول أن يعلم .

انه لا يهيب بأحد اهابة صريحة أن يثور . ولكن ما من أحد ، مهما يتحصن بالبلادة ، يملك أن لا يعايشه مشاعره وأن لا يحس فى أعماق نفسه بضرام ثورته . والى هذا أشار الناقد الفرنسى موريس نادو حين قال : « ان كاتب « الدار الكبيرة » يهز النفس هزا قويا بايجازه وتناوله الامور تناولا مباشرا نافذا . انه يؤثر فى القلب بأبسط وسيلة ، وهى ذكر الحقيقة عارية كل العرى ، بغير صراخ ولا دموع » (مركور دو فرانس) . والى مثل هذا أيضا ألمع الناقد الادبى لجريدة « الفيجارو الادبية » حين قال : « ان كتاب « الحريق » يأتى مصدقا لما عرف فى محمد ديب من مزايا نادرة ، هى مزايا كاتب يؤثر التعبير عن الحقيقة سافرة كل السفور على الصراخ والتوجع والتفجع ! » .

وذلك هو بعينه الشعور الذى خالجنا حين شهدنا منذ ثلاث سنين ونيف ، بطشقند عاصمة جمهورية أزبكستان السوفياتية ، وكنا عددا من أساتذة جامعة دمشق ، مسرحية مأخوذة عن رواية محمد ديب « الدار الكبيرة » ، لقد قلنا يومئذ : ان هذا الاثر الفنى لم يهزنا هزا قويا لمجرد أن الموضوع الذى يدور عليه يمس فى قلوبنا أوتارا خاصة بحكم أننا عرب نتجاوب تجاوبا خاصا مع آلام عرب الجزائر ، بل لأن فيه من الصدق ما يجعله خليقا بأن ينفذ الى كل قلب ، فلو شهده مستعمرون فرنسيون لما ملكوا الا أن يتأثروا اذا كانت لهم قلوب .

واذا كان محمد ديب رساما بارعا فهو أيضا شاعر فذ . وفى رواياته تتعانق ألوان المصور وأنغام الشاعر . هو رسام فى شعره ، شاعر فى لوحته . ولقد صدق روبرت كمف حين قال : « ان محمد ديب شاعر خلاق » . ان نفسه وتر مشدود يستجيب لكل اهتزازة ترتعش حوله . ما أجمل وصفه للطبيعة فىاطار الانسان ، وما أجمل وصفه للانسان فى اطار الطبيعة ! « لا شىء أروح من تأثر محمد ديب ذلك التأثر العميق الأسم بتعاقب فصول الطبيعة ! » .

وقد يجدر أن نذكر أن « الدار الكبيرة » قد نشرت عام ١٩٥٢ اى قبل قيام ثورة الجزائر . فاذا رأينا فيها تباشير الثورة التى هبت

بعد ذلك تأكل الأخضر واليابس، وتمرغ وجه الباغي بالتراب ، وتذيق المستعمر الذل ، فلا تقولن ان الشاعر كالعراف الصادق النبوءة ، وانما ينبغي أن نتذكر أن هذه الثورة قد تخمرت ونضجت ، فلما انطلقت كان فيها من الاحكام ما لا يكون بغير ذلك . وان رواية « الحريق » قد كتبت قبل الثورة أيضا ، ولكننا نرى فيها أطياف الثورة تتحرك ، فرب ناقد يقرأ الصفحات التى تصف تمرد الفلاحين على الاوضاع القائمة بمناقشات واعية ، فينعت محمد ديب بأن أدبه أدب تعليمى يبشر ويعظ ويحاول أن ينشر أفكارا بعينها . ولكن الحقيقة هى ان محمد ديب لم يزد على أن وصف واقعا راهنا ، فهو لا يجرى ألسن الفلاحين بغير ما تجرى به ألسنتهم من تلقاء نفسها من كلام فيه ذلك الوعى كله . انه يصور الحالة الفكرية والنفسية للفلاحين قبيل الثورة تصويرا أمينا . وهل يمكن أن نتخيل أن تقوم هذه الثورة العربية الجبارة فى الجزائر وأن تصمد هذا الصمود كله ، وأن تكون محكمة التنظيم على هذا النحو الرائع ، لولا انها تستند الى وعى عميق ؟ ان الفلاحين الذين يحققون هذه الثورة لا ترفدهم عاطفة متأججة فحسب ، وانما هم يعتمدون على نضج وفهم . ان الفلاحين الذين يقومون بالثورة ، انكانوا أناسا بسطاء طيبين ، تهون عندهم أرواحهم فى سبيل حريتهم ، فان فى بساطتهم وعيا ، بل ان بساطتهم هذه هى الوعى فى أسمى مدارجه .

ولنستمع الى محمد ديب مرة أخرى فى كلمته التى بعث بها الينا لتكون بمثابة تقديم لهذه الطبعة العربية لرواياته الثلاث :

« ... آمل أن تقدروا جملة الوقائع المثيرة التى رسمتها ، وأن تستمتعوا بهذه اللوحة كما يستمتع بها شعب الجزائر الذى قرر ذات يوم أن يفجر مفرقعات ، من قبيل الحماسة . انها عادة فى بلادنا : أن نفجر مفرقعات فى المباهج ... »

« ولكن « السادة » سرعان ما رأوا ان هذه العادات عادات عامية جدا ، لم يرض عنها ذوقهم فغضبوا ، فأعلنوا فى كل مكان : « ممنوع تفجير المفرقعات » فاذا بالمفرقعات فى هذه اللحظة يزداد تفجرها ، فهى تدخل بين أرجل السادة ، أمام أنوفهم ، تحت مقاعدهم ... وكان ذلك لا يليق بما يجب للسادة من احترام ، وفيه انكار لما

اسدوه من جميل ...

« وضاق السادة ذرعا ! هـذا تطاول .. وغضب « السـادة » الآخرون فى العالم ، فقرروا أن يمدوا الى أصدقائهم يد المعونة ، ذلك ان هـذه الفوضى لا يمكن احتمالهـا ، ولا بد من تأديب مفجـرى المفرقعات . ولكن جميع مفجرى المفرقعات فى العالم تنادوا من جهتهم الى شد أزر رفاقهم ..

« ومنذ ذلك الحين ...

« منذ ذلك الحين لم تنقطع المفرقعات عن التفجر فى كل ركن من الأركان ، وحيث لا يخطر بالبال أن تتفجر . جن السادة ، وطاش صوابهم ، وما زالوا يرغبون ويزبدون ويهددون ، ويحاولون أن يبثوا فى النفوس الخوف ...

« سلاما سلاما مفجرى المفرقعات !

هكذا يحيى محمـد ديب ، من مقـامه بالرباط ، اخوته الذين يحملون سلاح النار ويحمل هو معهم سلاح القلم .

ولد محمد ديب بمدينة تلمسان فى اليوم الواحد والعشرين من شهر تموز (يوليو) ١٩٢٠ . وفى تلمسان ثم فى عوجا ، نال قسطا من التعليم ، ثم عمل فى مهن شتى ، فكان عاملا فى مصنع للسجاد ، ثم محاسبا فى محل تجارى ، ثم معلما ، فصحفيا ، فكاتبا . وقد ترجمت آثاره الى لغات عدة ، وفاز بجائزة «Feneon» الادبيـة عام ١٩٥٣

١٩٦٠/١١/١ **سامى الدروبى**

- ١ -

— هات قليلا مما تأكل .

قال عمر ذلك ، وهو يقف أمام رشيد برى .

ولم يكن عمر وحيدا . فان شبكة من الأيدى قد امتدت تلح كل منها فى طلب نصيبها من الصدقة . فاقتطع رشيد لقمة صغيرة من الخبز ، فوضعها فى أقرب راحة اليه .

— وأنا ... وأنا ...

ارتفعت الأصوات متوسلة . فاحتج رشيد ، وحاولت الايدى كلها أن تنتزع من يده خبزه .

— أنا ... أنا ...

— أنا ما أعطيتنى ...

— حليم أخذ كل شىء .

— ... أنا ما أخذت شيئا .

فما كان من الصبى ، وقد انصب عليه التحرش من كل صوب ، الا أن أسرع يهرب ، فركض وراءه السرب كله يعوى وينبح . أما عمر فقد ترك الملاحقة ، لأنه قدر انها لن تجدى .

ومضى الى مكان آخر . كان هناك صبية آخرون يقضمون خبزهم . فطوف بينهم مراوغا خلال مدة طويلة ، ثم انقض على زحمتهم بوثبة واحدة ، فانتزع رغيف صبى قصير منهم ، وأسرع يختفى فى وسط المدرسة حيث ابتلعته زوبعة اللعب والصراخ . ولم يسع الصبى القصير الذى كان ضحية هذا الاغتصاب الا أن أخذ يزعق وهو فى مكانه لا يبارحه .

كان ثمة تلاميذ يلصهم عمر فى كل يوم : يطالبهم بنصيبه ، فان لم يطيعوا أمره فورا ، كان جزاؤهم الضرب فى كثير من الاحيان . أما اذا أطاعوا فانهم يشطرون طعامهم شطرين ، ويقدمون له الشطرين كليهما ليختار احدهما على ما يحلو له .

وهب احدهم اختفى خلال فترة برمتها من فترات الاستراحة بين الدروس فانه لا يعند كثيرا فى اختفائه ، بل يمضى يرقب عمر عند الخروج من المدرسة أو فى فترة أخرى من فترات الاستراحة بين الدروس ، حتى اذا لمحه من بعيد أخذ يبكى ، ثم نال عقابه ، وانتهى الى اعطاء عمر طعاما كاملا فى هذه المرة .

غير ان الماكرين من التلاميذ كانوا يلتهمون خبزهم أثناء الدرس فى الفصل نفسه . فيقول واحدهم ، وهو يقلب جيوبه :

ــ ما أتيت اليوم بشىء .

ــ لا شك أنك أعطيت خبزك لآخر ، اخفاء له .

ــ لا . . . لا . . . أحلف لك .

ــ لا تكذب .

ــ أحلف لك .

ــ لا تطلب منى اذن أن أدافع عنك بعد الآن .. هه ..

ــ أحلف لآتينك غدا بقطعة كبيرة .

يقول الصبى ذلك ، ويريه بحركة من يده حجم قطعة الخبز التى يعده بها . فيتناول عمر طربوش الصبى ، ويرميه على الارض ، ويأخذ يدوسه بقدميه ، بينما يأخذ المذنب يعول عويل كلب معذب .

كان عمر يحمى أولئك الذين يستبد بهم كبار التلاميذ . ولم يكن هذا النصيب الذى يتقاضاه الا أجر هذه الحماية . كانت سنوه العشر تضعه فى منزلة وسط بين الاقوياء من تلاميذ الحلقة العليا الذين كانت شواربهم تسود ، والضعفاء تلاميذ الحلقة الاعدادية . وكان الكبار يهاجمونه انتقاما لأنفسهم ، ولكنهم لا يجنون من هجومهم شيئا ، لأنه لم يكن يجىء الى المدرسة بخبز . وكان يخرج هو وخصومه من هذه المعارك وقد دميت أنوفهم وأسنانهم ، وازدادت ثيابهم القذرة تفتقا لا غير .

وكان عمر يحصل على الخبز فى « دار سبيطار » بطريقة اخرى . كانت يمينة ، وهى امرأة قصيرة حلوة القسمات ، تعود من السوق فى كل صباح بقفة ملأى . وكثيرا ما كانت ترجو عمر أن يقوم عنها ببعض الاعمال . يشترى لها الفحم ، ويملأ دلوها من ماء العين ، ويحمل عجينها الى الفرن .. فكانت يمينة تكافئه عند عودته بقطعة

من الخبز مع ثمرة من الفاكهة أو مع فلفلة مشوية .. حتى لقد كانت تعطيه من جين الى حين قطعة من اللحم أو سردينة مقلية . وكانت فى بعض الاحيان تناديه بعد الفداء أو العشاء ، حتى اذا أزاح الصبى الستارة ـ وكانت كل أسرة تسدل ستارتها فى مواعيد الطعام ـ أمرته أن يدخل ، ثم جاءت بطبق قد احتفظت بشىء من طيب الطعام فيه ، وكسرت الرغيف المدور الابيض ، ووضعت ذلك كله أمامه .

ـ الآن كل ، يا صفيرى .

تقول له ذلك ، ثم تدعه وتمضى تعمل فى الغرفة . كانت يمينة لا تقدم له الا بقايا طعام . ولكنها بقايا نظيفة ، لا يستطيع أكثر الناس تشددا أن يجدوا مأخذا عليها . كانت الارملة لا تعامل الصبى كما يعامل الكلب . وكان هذا يسره كثيرا .. أن لا يذل . وكان عمر لا يعرف ماذا يفعل ازاء كل هذه الرعاية وهذا اللطف . وكان لا بد ليمينة من أن تستحثه فى كل مرة حتى يتشجع على تناول الطعام .

صبى صغير هزيل ، له عينان قاتمتان كأنهما من فحم ، وله وجه شاحب قلق ، كان واقفا وحده بعيدا عن التلاميذ . راقبه عمر : انه مستند الى عمود فى ساحة المدرسة ، وقد جعل يديه وراء ظهره .. انه لا يلعب .. دار عمر حول الساحة ، وظهر من وراء شجرة دلب ، وأسقط بين قدمى الصبى ما كان قد بقى له من قطعة من الخبز ، وتظاهر بأنه لم ينتبه الى سقوط قطعة الخبز منه ، واستمر يركض ، حتى اذا وصل الى مكان يبعد عن الطفل مسافة كافية ، توقف وأخذ يتجسس عليه . فرآه يحدق الى كسرة الخبز من بعيد ، ثم يتناولها خلسة ، ويلتهمها .

كان الصبى متجمعا على نفسه ، جذعه الخائص مقمط بقميص من قماش الكاكى الذى يلبس فى الصيف ، وساقاه الهزيلتان تخرجان من فتحتى سروال طويل مسرف فى الطول . ان فرحا ملائكيا قد أضاء قسماته ، والتفت بوجهه نحو العمود . لم يفهم عمر ما الذى حدث له : لقد غص حلقه ، فهرع الى فناء المدرسة الكبير وأجهش يبكى .

- ٢ -

ـ اهذا هو الغداء ؟..

كانت « عينى » تقشر عكوبا بلديا قصيرا شائكا .

ـ نعم هذا هو الغداء !..

ـ فى أى ساعة نأكل ؟ .. هى الآن الحادية عشرة والنصف . تلعن الله أبا العكوب وأمه ! ..

وهم عمر بأن يخرج .

ـ اذهب . الرجال لم يخلقوا للبيت .

كانت الأم تفكر فى سى صلاح ، مالك البنت ، الذى يكره أولاد المستأجرين أشد الكره . كان سى صلاح قد حظر على الاولاد أن يلعبوا فى فناء البيت ، فاذا فاجأهم فيها فرق شملهم وراح يقرع أهلهم . وكان هؤلاء لا يجرءون أن يردوا عليه ، فاذا رأوه تجمدوا فى مكانهم أذلة ، أو اعتصموا بغرفهم لا يبارحونها . كانوا يحترمون مالك البيت احتراما يبعثهم عليه خوف ليس له حدود . وكانت زوجة سى صلاح ، وهى امرأة عجوز شمطاء ، تصاولهم أثناء غيابه بصراخها الذى يشبه صراخ العقاب .

ان وجود عمر فى البيت ، فى هذه الساعة ، نائبة من النوائب .

وبقى عمر .

ـ ألا تستحى يا بنت ؟

وحاولت « عينى » أن تمسك به من ذراعه . ولكن جهودها ذهبت سدى . فقد تملص منها .. وفجأة رمته بسكين المطبخ التى كانت تستعملها فى تقشير عكوبها . فأعول الصبى . وسل السكين من قدمه دون أن يتوقف ، وهرع يخرج من الغرفة ، والسكين فى يده ، ولعنات « عينى » تلاحقه .

— ٣ —

ان هاتين العينين الواسعتين ، عينى الصبى المقمط بقميص الكاكى تعبران عن تساؤل نهم ، كأنه تساؤل حيوان خائف . وكان عمر يقرأ فى هاتين العينين الانتظار ، والامل الراعش ، والقلق . الا ان بسمة قد أضاءت وجهه شيئا بعد شىء . وظهر تحت جناحى انفه اخدودان قاسيان مددا وجهه .

جاء عمر نحوه قدما . ووضع شيئا فى كفه الضيقة الصغيرة . فأغرق الصبى نظراته فى نظرات عمر ، دون أن يقول شيئا .

— أغمض عينيك ، وافتح فمك .

بهذا أمره عمر ، فأغمض الصبى عينيه ، وفتح فمه . فأسرع عمر يخرج من قاع جيبه ملبسة ويضعها على لسانه . ثم اختفى .

لم يكن يجرؤ عمر ولا أحد غير عمر أن يتعرض لتلك الفئة القليلة من أبناء التجار والملاك والموظفين الذين يرتادون المدرسة ، دون أن تناله يد المعلمين بعقاب شديد . أن من الخطر أن يهاجمهم أحد : فان لهم بين التلاميذ والمعلمين حاشية تتملقهم .

كان أحدهم ، واسمه ادريس بلخوجا ، وهو صبى غبى متكبر ، لا يعرض أثناء كل فترة من فترات الاستراحة بين الحصص ، خبزا فحسب ، وذلك وحده شىء كثير ، بل كان يعرض كذلك فطائر ومربيات . كان يستند بظهره الى جدار ، ومن حوله بطانته ، ويأخذ يلتهم طعامه فى رصانة ووقار . ومن حين الى حين ، يميل أحد الصبية على الارض ، ليلتقط ما يسقط من بين يديه من فتات .

ما رأى أحد ادريس يعطى شيئا فى يوم من الايام : فكان عمر لا يفهم لماذا يتجمعون حوله اذن هذا التجمع ! ترى أهو احترام غامض يوحى اليهم به مخلوق يستطيع أن يأكل كل يوم متى جاع ؟ أكان هؤلاء

الصبية مفتونين بالقوة المقدسة المتجسدة فى هذا الطفل الرخو الغبى ؟

كان لادريس رفيق يحمل عنه حقيبته الجلدية المطرزة بالفضة والذهب ، عند الخروج من المدرسة فى الساعة الرابعة . وكان هناك آخرون يذهبون اليه فى الصباح عند اقتراب موعد المجىء الى المدرسة ، ليرافقوه فى الطريق ، ثم لا ينفصلون عنه الا حين يدق الجرس . وكانوا يتنافسون على الاقتراب منه ، وطوبى لمن يتاح له أن يضع يده على كتفه !

وكان من عادته أن يشترى قضامة وبذرا وفلافل ، حتى لقد كان يملك نقودا أيضا . كان يشترى من البائعين الصفار الذين يتلبثون فى شارع التلاميذ المظلم ، قبيل الساعة الواحدة ، خمسة قراطيس من القضامة أو ستة ، فيوزع على كل واحد من رفاقه حبة واحدة . فاذا تشكى هؤلاء الرفاق أو سخروا ، أخذ يهر بصوت أقوى من صوتهم قائلا :

ـ وأنا ، ماذا يبقى لى اذن ؟ .. اتريدون أن أعطيكم كل شىء ؟

وكان فى كل صباح بلا استثناء يذكر لرفاقه ، بعد أن يشبع ، ما أكله فى الليلة البارحة، ثم يذكر لهم فى فترة الاستراحة بين الحصص بعد الظهر ، ما تناوله من طعام فى وجبة الغداء : لم يكن يخرج موضوع كلامه عن فخذ خروف مشوى بالفرن ، وفراخ ، وكسكسى بالزبدة وبالسكر ، وعن حلوى باللوز والعسل مما لم يسمع أحد منهم بأسمائها من قبل . هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحا ؟ .. لعل الغبى لم يكن يبالغ .

كان الاطفال يقفون زائغى الابصار مبهوتين وهم يستمعون الى حديثه الملىء بذكر هذه الاطعمة . وكان هو لا ينى يكرر تلك القائمة الطويلة من أسماء الاطباق التى تذوقها ، مما يصعب تصديقه .

ان الأعين كلها تشخص اليه ، وتتفحصه تفحصا غريبا . ويسأله أحدهم لاهثا :

ـ أكلت وحدك قطعة كبيرة من اللحم هكذا ؟ ..

ـ أكلت وحدى قطعة كبيرة من اللحم هكذا ..

– وخوخا مجففا ؟ ..
– وخوخا مجففا ..
– وعجة بالبطاطس ؟ ..
– وعجة بالبطاطس ..
– وبازاليا باللحم ؟ ..
– وبازاليا باللحم ..
– وموزا ؟ ..
– وموزا ..
ويسكت السائل .

***

كان عمر يطوف فى ساحة المدرسة باحثا . أين صاحب القميص الكاكى ؟ .. والتقى بعدد من رفاقه ، فكان يصدمهم صدما عنيفا ، وكانوا يتعلقون به عند مروره ، وينادونه . ولكنه لم يعثر على أثر من آثار الصبى .

وحلف فجأة انه لن يراه بعد اليوم أبدا . كان فى العادة يلمحه مستندا الى ذلك العمود نفسه فى رواق المدرسة . وكان صاحب القميص الكاكى يبدو مبعدا ، فهو يظل طوال الوقت متنحيا عن الصبية الآخرين .

ان الجرس الذى يعلن نهاية فترة الاستراحة يوشك أن يدق . الهياج فى ساحة المدرسة بلغ ذروته . اللعب ازداد عنفا . صيحات الصراخ تثقب الجو . هذه هى العلامات التى تسبق الدقائق الاخيرة من فترة الاستراحة : ان عمر يعرف ذلك بغريزة التلميذ .

أحسن من هذا بفاجعة . وكان لا يزال يبحث عن صاحب القميص الكاكى .

وأحس فجأة بأنه لا يرتبط بالحياة الا بروابط غامضة . غدا كل شىء من حوله غريبا . ان صاحب القميص الكاكى لا وجود له فى اى مكان . ما عساه يصبح بدون صاحب القميص الكاكى ؟

ودوى صوت الجرس . واصطف عمر مع رفاقه .

انه يتخيل صاحب القميص الكاكى عند أهله دون ريب ينتظره ..

ويتخيله جالسا الى « المائدة (١) » ، ويتخيله لاعبا فى فناء بيت كبير .

ضرب المعلم الهواء بعصاه الرقيقة المتخذة من غصن زيتون . ودخل التلاميذ الى الفصل مصطفين اثنين اثنين .

وجه عمر نظراته الى أمام وارتعش فمه . ومع استمرار قلقه وخوفه تخيل أن صاحب القميص الكاكى قد مات .

ولكن فى اللحظة التى كان يغلق فيها باب الفصل ، لمح عمر قامة الصبى النحيل تجتاز ساحة المدرسة مهرولة .

---

(١) تطلق اسم المائدة فى اللغة الدارجة بالجزائر على منضدة مدورة واطئة يجلس اليها أفراد الأسرة للطعام .

ما ان جلس التلاميذ على مقاعدهم حتى أعلن المعلم بصوت كأنه صوت البوق ان الدرس درس أخلاق .

ـ أخلاق .

الدرس درس أخلاق . اذن فى وسع عمر أن ينتهز هذه الفرصة ليمضغ الخبز الذى كان فى جيبه ولم يستطع أن يعطيه للمقمط بالقميص الكاكى .

سار المعلم بضع خطوات بين مناضد التلاميذ . فتبددت الضوضاء الصماء ، ضوضاء ضرب الارض بالنعال وخبط المقاعد بالأرجل ، والنداءات والضحكات والهمسات. وخيم الهدوء المؤقت على القاعة كأنما بسحر ، فاذا التلاميذ يحبسون أنفاسهم ، وينقلبون الى أولياء صالحين . ولكن رغم سكوتهم ورغم اجتهادهم ، كان يتموج فى الجو فرح خفيف مجنح متراقص كالضياء .

سر الاستاذ حسن ، فسار الى منبره ، وأخذ يقلب أوراق دفتر كبير ثم قال :

ـ الوطن ..

لم يكترث الصبية بالنبأ . انهم لا يفهمون . وعسكرت الكلمة فى الهواء تهتز .

ـ من منكم يعلم معنى كلمة : الوطن ..

فقامت حركات عكرت هدوء الفصل . فضرب المعلم احدى المناضد بعصاه ، فأعاد الى القاعة النظام . بحث التلاميذ فيما حولهم ، وطافت نظراتهم بين المناضد ، وعلى الجدران ، ومن خلال النوافذ ، وفى السقف ، وفى وجه المعلم . ظهر واضحا أن الوطن ليس فى أى مكان من هذه الأمكنة التى طافت بينها نظراتهم . ان الوطن ليس فى الفصل . ونظر التلاميذ بعضهم الى بعض . ان منهم من كان يضع

نفسه خارج المنافسة ، ويصبر راضيا سعيدا .

رفع ابراهيم بالى اصبعه . ها ... اذن هو يعرف . لا غرابة . انه يعيد سنته ، فلا بد أن يعرف .

قال ابراهيم :

ــ فرنسا هى أمنا الوطن .

كان صوته الاخنف هو الصوت الذى يصطنعه كل تلميذ حين يقرأ. فحين سمع التلاميذ هذا الكلام ، أصبحوا يقرقعون جميعا أصابعهم ، أصبحوا يريدون جميعا أن يتكلموا. ودون استئذان ، رددوا العبارة نفسها متنافسين .

كانت شفتا عمر مزمومتين ، فهو يعجن فى فمه لقمة من الخبز . فرنسا ، عاصمتها ، باريز . انه يعرف هذا . الفرنسيون الذين يراهم فى المدينة ، قادمون من تلك البلاد . واذا أراد أحد أن يذهب الى هناك أو ان يعود من هناك ، عليه ان يجتاز البحر ، أن يركب باخرة .. البحر ، البحر الابيض المتوسط . انه لم ير البحر فى حياته ، ولا رأى باخرة . ولكنه يعرف : يعرف ان البحر مساحة كبيرة من الماء المالح ، وان الباخرة نوع من خشبة كبيرة عائمة . وفرنسا ، رسم ملون بعدة ألوان . ولكن كيف تكون تلك البلاد البعيدة أمه ..ان أمه فى البيت .. انها « عينى » . وليس له أمان اثنتان . « عينى » ليست فرنسا . ليس ثمة أشياء مشتركة بين أمه وفرنسا . لقد اكتشف عمر الكذبة.

فرنسا ليست أمه ، سواء أكانت هى الوطن ام لم تكن هى الوطن . انه يتعلم أكاذيب ، تحاشيا لعصا الزيتون الشهيرة . هــذه هى المراسة . الانشاء : صف سهرة الى جانب الموقد .. ان الاستــاذ حسن يقرئهم نصوصا تتحدث عن أولاد مكبين على القراءة فى جــد ونشاط ، نور المصباح ينصب على المنضدة .. بابا غارق فى أريكة يقرأ جريدته، وماما تطرز. ان عمر مضطر الى أن يكذب. وهاهوذا يكمل وصف السهرة ، النار تتأجج فى الموقد ، رقاص ساعة الحائط يدق ، جو البيت دافىء لذيذ بينما المطر يهطل فى الخارج ، وبينما الريح تعصف ، والظلام دامس . ما أمتع الجلوس فى البيت أمام نار الموقد .. وهكذا : صف البيت الريفى الذى تقضى فيه أجازة الصيف : نبات اللبلاب يتسلق على جدران واجهة البيت . الماء يزقزق فى الساقيــة

عند المرج القريب . الهواء نقى . ما أسعد المرء باستنشاق الهواء ملء رئتيه ! موضوع آخر : الفلاح . ها هو ذا يدفع محراثه فرحا وهو يغنى فترافقه فى الفناء قبرة تغرد .. المطبخ : هذه آنية الطهى مصفوفة منظفة ملمعة كأنها المرايا . عيد الميلاد : شجرة عيد الميلاد المزروعة فى البيت ، خيوط الذهب والفضة ، الكرات ذات الالوان المتعددة ، اللعب التى يعثر عليها فى الاحذية . فطائر « العيد الصغير » ، الخروف الذى يذبح فى « العيد الكبير » .. هكذا الحياة ..

كان التلاميذ يقولون : أحسن تلاميذ الفصل من يعرف كيف يكذب خيرا من غيره ، من يعرف كيف يرتب كذبه

كان عمر يفكر فى طعم الخبز الذى فى فمه . وراح المعلم يعيد فرض النظام ، على مقربة منه . ان صراعا دائما يقوم بين القوة المنطلقة المتموجة التى تمور فى الطفل ، وبين القوة الساكنة المستقيمة التى يريدها النظام
ويدأ الاستاذ حسن الدرس :

– الوطن هو أرض الآباء . هو البلد الذى نسكنه منذ أجيال

وتوسع الاستاذ حسن فى الموضوع ، فشرح وفسر . وكان الصبية يسجلون كلامه ، بعد أن حبس ما فى نفوسهم من رغبة فى الحركة حبسا قويا

– ليس الوطن هو الارض التى نعيش فوقها فحسب ، بل هو كذلك كل ما على هذه الارض من سكان ، وكل ما فيها بوجه الاجمال

يستحيل أن يفكر المرء فى الخبز طوال الوقت . سيحتفظ عمر بحصة الغد لصاحب القميص الكاكى . هل يشمل الوطن صاحب القميص الكاكى أيضا .. المعلم يقول هذا .. انه لأمر غريب مع ذلك أن يكون المقمط بالقميص الكاكى .. ثم أمه؟ وعيوشة؟ ومريم؟ وسكان دار سبيطار ؟ هل هؤلاء جميعا يعدون من الوطن ؟ .. وحميد سراج أيضا ؟ ..

– وحين يأتى من خارج الوطن أناس أجانب يدعون أنهم هم السادة ، فان الوطن يكون عندئذ فى خطر . هؤلاء الاجانب أعداء يجب على جميع الاهالى أن يدافعوا عن الوطن ، وان يقدموا حياتهم ثمن ذلك

أى بلد هو بلده ؟ .. ان عمر يود لو يسأل المعلم ذلك ، كى يعلم أين أولئك الخبثاء الذين يدعون انهم هم السادة .. من هم أعداء

بلده ، من هم أعداء وطنه ·· ولم يكن عمر يجرؤ على أن يفتح فمه لطرح هذه الاسئلة ، بسبب طعم الخبز .

ـ ان الذين يحبون وطنهم ، ويعملون فى سبيل خيره ، فى سبيل مصلحته ، يسمون وطنيين

واكتسب صوت المعلم نبرات فخمة أخذت تدوى فى القاعة وكان يذهب ويجىء ..

هل الاستاذ حسن وطنى ؟ .. هل حميد سراج وطنى أيضا ؟ . كيف يمكن أن يكون كلاهما وطنيين ؟. انالمعلم من الوجهاء ، بينما حميد سراج شخص تلاحقه الشرطة فى كثير من الاحيان .. اىالاثنين هو الوطنى ؟ . ظل السؤال معلقا بلا جواب

ودهش عمر حين سمع المعلم يتكلم باللغة العربية ، هو الذى كان يحظر عليهم أن يتكلموا بالعربية .. عجيب .. هذه أول مرة .. شده عمر ، رغم انه لا يجهل أن المعلم مسلم ـ فاسمه حسن ـ ورغم أنه لا يجهل أين يسكن · حتى لقد كان لا يعرف هل هذا المعلم يستطيع حقا أن يتكلم بالعربية

وقال المعلم ، بصوت خافت يخالطه عنف محير :

ـ ليس صحيحا ما يقال لكم من أن فرنسا هى وطنكم

عجيب ·· لقد كان عمر يعرف أن ذلك كذب

وسيطر الاستاذ حسن على نفسه . ولكنه ظل يبدو مضطربا خلال بضع دقائق ·كان يلوح عليه انه يهم بأن يقول شيئا آخر أيضا·ولكن ما عساه يقول .. أليس ثمة قوة أكبر منه تمنعه من أن يقول مايريد قوله

وهكذا لم يعلم الصبية ما هو وطنهم ..

— ٥ —

في الساعة الحاديه عشرة ،على أبواب المدرسة نفسها ،قامت معركة بالحجارة ، وتتابعت على الطريق الذى يحاذى أسوار المدينة

ان هذه المعارك العنيفة ، الدامية أحيانا ، تدوم أياما بكاملها . ان المعسكرين المتقاتلين ، وهما صبية من أحياء مختلفة ، يضمان عددامن الرماة الممتازين . ان الصبية الذين تتألف منهم جماعة عمر يفوقون الآخرين مهارة وخفة وجرأة . انهم هم الموهوبون أكثر من غيرهم ، رغم قلة عددهم . فاذا قيل : أولاد « الرحيبة » ، تصور الناس شياطين لا يطمع أحد فى ردهم الى الصواب . كم مرة ظلوا يلاحقون خصومهم حتى وصلوا الى قلب المدينة ، وحتى وصلوا الى « البحيرة الكبيرة » ، يثيرون الرعب فى صفوف سكان المدينة الوادعين المسالمين .

كانوا ، فى هذه الايام من الشتاء ، أشبه بقطعان من بنات آوى ، يهاجمون بعض مستودعات الخشب ، فينهبون منها عددا من الالواح يوقدونها. انهم يغذون بهانيرانا كبيرة اضرموها فىأراض بور ، وتجمعوا حولها كبارا وصغارا يطلقون صرخات غريبة تقطع الصمت

لم يكن عمر يعرف أمكنة لالعابه غير الشارع . وما كان يمنعه أحد، وخاصة أمه ، من أن يهرع الى الشارع حين يستيقظ من النوم . لقد انتقل أهله من بيت الى بيت عشرات المرات ، ولكن كان يوجد فى كل حى، مكان بين الازقة والمقاسم التى تبنى ، يتخذه أولاد الحى ساحة للهوهم وعبثهم . كان عمر يقضى هنالك أوقات فراغه ، أى النهار كله ، ذلك انه كان فى كثير من الاحيان يرى أن ليس فى المدرسة ما يشوقه ، فيمضى يلحق بالصبية الآخرين . لو خطر ببالك أن تقول لامه انه ليس من الحكمة فى شىء أن تترك ابنها يتسكع فى أى مكان، وان ذلك قد يحرفه عن الطريق القويم ، وقد يكسبه عادات التشرد والكسل ،لدهشت . ومن يدرى ؟ .. ان الصبى لا يستسلم لنزواته

فحسب ، بل يتأثر كذلك بصبية أكبر منه سنا ، وأشقياء مستهترين عابثين سارفين يعيشون فى هذه الاحياء فسادا . ان سن هؤلاء وقوتهم يتيحان لهم أن يسيطروا عليه • أن هؤلاء السفهاء الذين لا يخافون شيئا ولا يخجلون من شيء يطوفون فى المدينة باحثين عن ضربات سيئة يحاولونها ، وعن مزحات خشـــنة يمزحونها • انهم لايفوتون أبدا فرصة الاسترسال فى الوقاحة التى يتلفف بها قلقهم الغامض

وانهم ليزدادون خشونة واستخفافا حين يرون أناســا محترمين وقورين . ان هؤلاء ينظرون اليهم نظرة شزراء ، ويعدونهم صبيــة فاسدين لا يصلحون لشيء ولا يتورعون عن ارتكاب كل عمل •• ولكن الصبية لا يعبأون ..

حتى اذا التقت فئةمنهم بفئةدارت رحى المعركة بينهم كالمسعورين . وكان ينتهى ذلك بتفجر الدم فى أكثر الاحيان كان هناك من ينتهى بهم الامر الى تلقى لطمة حصى على الوجه أو على الجمجمة . فاذا تفجر الدم فى أحد المعسكرين أخذ صبية المعسكر المقابل يرفعون سيقانهم الى أعناقهم وهم يطلقون صرخات كبيرة فى فرح وحشى ، ويصيحون صيحات طويلة : هو .. هو .. علامة الاحتقار ، ويشفعون الصيحات بقفزات سريعة نشيطة . ويقترب الاخرون من الضحايا فى أسفه ، وقد هبطت أذرعهم خرقاء على أجسامهم • انهم يحتفظون بالحجارة فى أيديهم مدة طويلة ، وتظل جيوبهم محشوة بالحجارة أيضا • وينظرون فى وجوه الجرحى متفرسين ، ثم يبتعدون دون أن ينبسوا بكلمة..

ويأخذون يتخففون من حجارتهم ، ويتخففون فى الوقت نفسه من عذاب الضمير الذى خالط نفوسهم لحظة . انهم يمضون على انتعاش القوى ، بينما الجرحى يجهشون فى بكاء صاخب • والشجعان منهم يشدون أسنانهم ويصمتون • ولا يتركون ساحة المعركة الا مسلحين بحجارتهم كلها

ان عمر أصبح يخاف من هذه المعارك منذ انشق صدغه ذات مرة . كان الصغار من الاطفال يجندون لالتقاط الحجارة التى يتراشق بها الخصوم من ساحة المعركة التى أقحموا فيها بالقوة

ان الكبار الذين يقاتلون يملكون كثيرا من المرونة والمهارة ، فاذا وقفوا أمام العدو وجها لوجه ، رأوا المسار الذى تسـير فيه الحجارة

مقبلة عليهم ، فتحاشوها فى الوقت المناسب . أما الذين يجمعون الحجارة فانهم مائلون على الارض ، فلا يستطيعون أن يتقوا الحجارة المتساقطة . فاذا أصابهم حجر لم يعبأ الكبار بذلك أكثر مما يعبأون بسقوط حجر على جدار

ان المرء يصادف فى كل مكان من الشوارع أطفالا من هؤلاء الاطفال النكرات المصاريد كعمر يطفرون حفاة الاقدام . ان لهم أعضاء كأعضاء العنكبوت وهنا ، وان اعينهم لتتقد من الحمى . وكثيرون منهم يستجدون الاكف بشراسة أمام الابواب وفى الميادين . ان بيوت تلمسان متخومة بهم ، وبصياحهم هى ايضا متخومة

- ٦ -

اليوم خميس . هو يوم عطلة ، وليس على عمر أن يذهب اذن الى المدرسة . ان « عينى » لا تعرف كيف تتخلص من ابنها . لقد وضعت فى وسط الغرفة « كانونا » مليئا برماد الفحم ، فالرماد يشتعل فى عناء • ظن الناس أن البرد قدولى ولكن الشتاء ما لبث ان عاد الى المدينة عودة مفاجئة ، وجعل يحز الهواء بملايين الشفار الحادة . والثلج هاطل لا محالة فى تلمسان متى انخفضت درجة الحرارة فى شهر شباط (فبراير) .

كان عمر يضع قدميه المتجمدتين على البلاط . وعينى عارية الساقين حتى الركبة ، ترتدى قميصا رقيقا مشمورا فوق سروال من الخام ، وقد شدت كتفيها بمنديل خلق ممزق . انها تؤنب عمر ، وهى ترتعش من فرط الاضطراب :

— عمر ألا تريد أن تهدأ ؟

كان عمر يحضن الكانون ، ويحرك قاعه ، فتتقد بعض القبسات فى الرماد قليلا • انه يدفىء يديه ، فتبيضان شيئا بعد شىء ، ضخمتين كالثمر المسرف فى النضج ، ثم يطبق بهما على قدميه . ان منظر البلاط الاحمر القانى مزعج • ان عمر منكمش على نفسه امام الموقد •

ان الموقد يخمد فى الغرفة المظلمة الرطبة • ان عمر لا يدفىء الا يديه أما القدمان فان فيهما حكاكا لاسبيل الى مغالبته • ان بردا ساكنا يخدش جلده خدشا •

وأسند ذقنه الى ركبتيه ، وأقعى اقعاء تاما يجمع الدفء • ان اليتيه القاعدتين على جلد قصير من جلود الخراف موجعتان . وغفا أخيرا وهو متجمع على نفسه ، عارف على الم أن ليس فى البيت طعام يأكله ، اذ لم يبق ثمة الا قليل من كسر خبز كانت قد جاءتهم به الخالة . أن الصباح الادكن ينقضى دقيقة بعد دقيقة

وفجأة دبت فى ظهره رعشة ، فاستيقظ على تخدر فى ساقيه ونمل شديد • ان البرد يقرص جسمه قرصا لا رحمة فيه • والموقد ذهب حملته عينى

كانت عينى مقرفصة فى الطرف الآخر من الحجرة ، وقد وضعت الكانون على احدى فخذيها وأخذت تدمدم بينها وبين نفسها

فلما رأته يفتح عينيه ، انفجرت قائلة :

ــ هذا كل ما تركه لنا أبوك ، ذلك الرجل الذى لا يصلح لشىء : ترك لنا البؤس . غيب وجهه فى التراب ، وسقطت على جميع أنواع الشقاء .. الشقاء هو نصيبى طوال حياتى .. هو الآن هادىء فى قبره .. لم يفكر يوما فى ادخار قرش واحد .. وهأنتم تتشبثون بى كالعلق الذى يمتص الدم . لقد كنت غبية .. كان ينبغى أن أترككم فى الشارع ، وأن أهرب الى جبل خال مقفر

رباه .. من ذا الذى يستطيع أن يوقفها الآن عن هذا الكلام ؟ . وكانت نظرتها السوداء المعذبة تتقد . وعادت تدمدم :

ــ الشقاء هو حظى من الحياة .

كان عمر صامتا .

لاشك انها حاقدة على أحد • ترى من هو ؟ • وأخذت تكيل الشتائم المقذعة لأشباح .. أصبح الصبى لا يفهم شيئا من هذا الغضب الذى ماينى يزداد . هل فى الغرفة شخص آخر ؟ . نعم ، هناك الجدة .. ولكن ..

كانت الجدة ماما راقدة وراء عمر . لقد تسلموها أمس . آواها ابنها ثلاثة أشهر ، وجاء الآن دور عينى لتعيلها ثلاثة أشهر أخرى •

ان الجدة ماما مشلولة . ولكنها محتفظة بصفاء فكرها : ان نظرتها الزرقاء الواضحة لا تزال على حالها القديمة من الالتماع ، حتى لتكاد تكون نظرة بريئة . ومع ذلك فان عينيها ، رغم ما يشبع فيهما من بريق الحلم والنبل ، تتجمدان فى بعض اللحظات على تعبير بارد قاس . وكانت تحيط وجهها الصغير العجوز المتورد النظيف ، بمنديل من شاش أبيض • وكان ينبغى أن تساعد الجدة فى كل شىء : فى تناول الطعام ، فى الالتفات ، فى قضاء الحاجات

ان عمر يرتعش على غير شعور . ووضعت عينى الكانون على الأرض . واستدارت فى مكانها ، ونظرت الى الجدة :

ــ لماذا لا يبقيك ابنك عنده ؟ .. كان يهتم بك حين كنت لامرأته خادمة خلال سنين . حتى اذا ما أصبحت ساقاك لا تقويان على حملك، رماك كمــا ترمى الزبالة ، أليس كذلك ؟ . لقد أصبحت لا تصلحين لشيء .. هذا هو الموضوع ..

كانت عينى منتصبة على ركبتيها تقذف حقدها فى وجه الجدة.. وحاولت الجدة أن تهدئها :

ــ عينى ، بنتى ، يا أمى الصغيرة .. لعن الله ابليس ، انه هو الذى يضع فى رأسك هذه الافكار

ــ ليت الموت يأخذك . لماذا لم ترفضى أن يحملك الى هنا ؟ .

ــ ماذا كان فى وسعى أن أفعله يا ابنتى ؟ .

ــ امرأته هى التى أرسلتك الى . انه مستعد لأن يلعق قدميها . انها هى التى تعمل لتطعمه ، أما هو فيقضى وقته فى التسكع بين المقاهى .. ابن الكلب .. أسكتى ، لا أريد أن أسمع صــوتك .. أسكتى ، اسكتى .. ان الله قد ألقاكم على حشرة تلتهمنى .

كانت عينا الجدة تتضرعان . ود عمر لو يركض الى الشارع ، لو يهرب . أراد أن يصرخ . الا أن وجه أمه وقف بينه وبين البــاب . فانبطح على الارض ولم يتحرك بعد ذلك . كان يهم بأن يقول . فعسى أن يسمع صوته الجيران ، فيهرعوا وينقذوه من أمه التى تريــد أن تصهره بلا رحمة . ولكن أمه لم تلمسه . فظل راقدا على الارض ، الى أن قالت له بصوت حاد :

ــ انهض ، تعال .

فنهض ، واقترب منها ببطء محسوب . فأومأت اليه برأسها أن ينهض الجدة

فأنهض الجدة مع عينى . كان يتساءل : ترى ما الذى سيقع ؟ وفيما هو يتبع أمه قلقا ، لاحظ انها تجر الجدة الى الخارج . وكانت الجدة لا تنفك تتوسل كالمجنونة قائلة :

ــ عينى ، عينى ، بنتى ..

كانت عينى تجرهما كليهما. ومضيا يحملان المرأة العجوز، فاجتازا بها الدهليز ، حتى وصلا الى المطبخ ، وهنالك أفلتتها عينى ، فسقطت على البلاط .

كان عمر يرتجف . ان فى ضراعات الجدة خوفا لا يوصف .. ان فيها من الذعر ما جعل الصبى يشعر بحاجة الى أن يعول هو أيضا .

كان مطبخ الطابق حجرة كبيرة ، جدرانها سود ، وأرضها بلاط كبير تتراكم عليه أشياء كثيرة من كل نوع ، وليس لها باب . ان ضوءا ضعيفا خائفا يدخل الى الحجرة . أما البرد ، فهو ههنا قاتل ...

وبدا على عينى أنها اكتشفت ما كانت ترغب فيه . أخرجت كرسيا مغبرا من بين ركام الاشياء ، فوضعته وراء ظهر الجدة ثم أجلستها عليه . وقالت لابنها وهى تبتعد :

ـ تعال أنت ..

وتركا العجوز . ان وجه الجدة يمتقع ، وان نظرتها تهتز . كانت عيناها تقولان : « الموت .. الموت .. »

أعول عمر .

ـ أأنت مجنون فتصرخ هكذا ؟ .

قالت عينى له ذلك ، وانقضت عليه .

وهمست فى أذنه :

ـ تعرف ماذا سيقع لك ..

فأحنى عمر رأسه ، ثم قال فجأة :

ـ لا يهمنى ..

وهرب . فأسرعت تركض وراءه . ولكنه اجتاز فناء البيت بوثبة واحدة ، ووصل الى الرواق ليهرب الى الشارع . فلما بلغت أمه الباب ، لم يكن فى وسعها أن تطارده الى أبعد من ذلك ، لان حجابها لا يغطى وجهها ، فلم تستطع أن تزيد على أن تشيعه بسيل طام من الشتائم واللعنات .

ـ اخرسى يا ... عاهرة .

وانطلق فى الشارع . وصل الى الزقاق بعض المارة . فانسحبت عينى . حتى اذا صاروا أمام البيت ، رجتهم من خلال الباب أن يجيئوا لها بابنها . ولكن عمر كان قد ابتعد . كان يركض بأقصى سرعة . فلما عادت عينى الى غرفتها ، أغلقت بابها ، فأصبح الصبى لايمكن أن يرجع دون أن تشعر برجوعه

— ٧ —

ظل عمر يتسكع فى الشوارع الى أن قدر أن غضب أمه لابدأن يكون قد هدأ . فعاد الى دار سبيطار ، وفيما هو يتسلل نحو الفرفة ، لمحته عينى ، فوثبت فورا تطارده . فهرب وأخذ يجدف :

ـ يلعن أبوك ، يا ملعونة ، تلعن أمك ..

وركض الى الشارع مرة أخرى .. ان ريحا ثلجية تكنس الزقاق الضيق . وبحث عمر عن مكان يختبىء فيه من صفع الريح . عدل عن العودة الى دار سبيطار الان . انه حانق أشد الحنق من طرده على هذه الصورة

هذا مدخل عمارة كبيرة . اندس عمر فى المدخل . ولبد بين مصراع الباب المفتوح وبين برميل الزبالة . ان قدمه تؤلمه . والجرح الناكىء الذى أصيب به فى ذلك اليوم الماضى يوجعه . والريح تصفر فى هذا المبيت بلا توقف

ما عساه يصنع الآن ؟ .

ان البرد يلعق وجهه . كان فى مثل هذه اللحظات يتمنى لو يعثر على أبيه ، أبيه الميت . ولكن الحقيقة التى اكتشفها كانت لا تطاق ان أباه لن يعود أبدا اليه ، مامن أحد يستطيع ان يرد اليه أباه

لن يقضى الليلة كلها فى الشارع . ان معاقبته عند رجوعه الى البيت اصبحت لا تخيفه . لا ضير .. يمكن أن تصنع به أمه ماتشاء ، فلن يعترض ولن يقاوم . انه كالميت ، فمامن شىء مما يقع له يمكن ان يهمه . كان لا يتألم . أصبح لا يتألم . ان قلبه من صخر . لقد قرر أن يسلم نفسه لضربات أمه ، دون أن يحاول التهرب من احداها ، سوف يعرف حدود مقاومته .. ان فى نفسه الآن تحديا . لسوف يرى من الذى سيتعب قبل الآخر : أمه التى تعذبه أم هو الذى يحتمل العذاب ؟ .. كان واثقا من انه لن يتخاذل ، وانه سيصمد الى النهاية .

نعم : يجب عليه أن يعود ، لا شيء غير هذا . فيم الهرب ؟ ..

ولكن لماذا لا يقتل نفسه .. لماذا لا يرمى بنفسه من أعلى سطح .. ونظر فيما حوله . لا أحد فى الدهليز . وانطوى على نفسه حتى صار كالكرة ، من أجل أن يصبح فى ركنه أصغر . نعم ، نعم ، يجب أن يموت . من الذى يعبأ به ، بعدئذ .. حادث صفير ، ثم لا يحفل بالامر . لن تستطيع أمه أن تعثر عليه . هذا خير « مقلب » يمكن أن يدبره لها خياله .

ودوى الى جانبه وقع أقدام . فانتفض . ثم ما لبث سكون الليل أن خيم .

كيف يستطيع أن يكون فى بيته ، فى غرفته ؟ وأخذ قلبه يدق ، ضخما ثقيلا .. ترى هل اذا رآه أحد الى جانب برميل الزبالة ظنه متسولا ؟ . لا .. فى هذه العمارة التى يقطنها فرنسيون ، اذا شعر أحد بوجوده ، لن يظن الا أنه « حرامى » صفير .. لسوف يهيج عليه سكان العمارة ، بل سوف يهيج عليه الحى بأكمله ، بل تلمسان كلها

وتسلل الى خارج العمارة. لم يره أحد . عليه الان أن يعود. ليس هذا كله الا لعبا . ليس ثمة ما يدعو أمه الى ضربه . انها لم تفكر فى تعذيبه فى لحظة من اللحظات .

سمع عمر صرخات حادة وهو يقترب من دار سبيطار . عرف الصوت . انه لم يذق طعاما منذ الصباح ، فساقاه الضعيفتان جدا أصبحتا لا تقويان على حمله

كانت الصرخات صرخات أمه تطلقها فى الفضاء واقفة عند الباب :
ـــ عمر ... عمر .
هكذا كانت عينى تنادى بأعلى صوتها

وكان الناس يمرون صامتين لا يبالون . وكانت نساء محجبات بمناديل بيضاء حتى لكأنهن الاشباح ، يتوقفن قليلا ، ثم يحثثن الخطا مسرعات . وصل عمر أمام البيت . رأته عينى . توقف وقد استبد به خوف شديد .
ـــ ادخل .

ظل عمر ساكنا لا يتحرك . واستند الى الحائط ، لانه كان يشعر أن قواه قد خارت . واشتدت صرخات أمه .

وعادت الى خياله صورة الجدة ممددة على بلاط المطبخ ، عاجزة عن الحركة ، متقدة العينين بالخوف . أما تزال حية ؟ . هل ضربتها امه ؟ . وأحس أن كل شيء ينهار من حوله . ومرة أخرى أراد أن يترك الحياة . وبكى بكاء رفيقا . واجتازت أمه بقدميها العاريتين وذلذل ثوبها ، الشارع مسرعة . انها الآن أمامه بملاءتها . ولكن الظلام دامس

جرته عينى من ذراعه . فاجتازا الزقاق ودخلا الى البيت . وما كاد يجتازان الدهليز حتى سقط

أنهضته أمه . ونظر الصبى الى وجهها الشاخص اليه يسأله . نقلته الى الغرفة . وضعته على جلد الخروف . ثم مددته جاعلة رأسه على احدى ذراعيه . لم يتحرك عمر

وابتعد وجه الأم . ولم ينبس الصبى بكلمة واحدة وهو راقد على مضجعه . وبدا له أنه راقد منذ قرون . وحين انطفأت فى رأسه الجلبة وضوضاء الاصوات التى كانت تملؤه ، أحس انه مهجور وحيد ، منبوذ من الحياة . وسمع بضعة أصوات قريبة منه كل القرب . ما هذه الرعشة التى تسرى فى جسمه كله .. ان شيئا يقول له انه سيهوى او يزول .. فتح عينيه قليلا

كانت أمه تصلى . ظلت واقفة متجمدة مدة طويلة ، وفجأة ركعت ثم سجدت .

ان عمر يحس بألم فى عينيه . أصبح لا يستطيع أن يرى شيئا . لانه عاجز حتى عن الابقاء على تباعد جفنيه .

وساقاه ترتعشان فى غير انقطاع . وأخذ يؤلمه الاضطجاع أشد الالم . متى يرتاح ؟ .

- ٨ -

جاء شهر آذار . ان الأحد الثانى من هذا الشـــــهر يوم لا ينسى فى حياة دار سبيطار ..

أفاق عمر من نومه مذعورا ، وهب واقفا على قدميــه . ان دار سبيطار تغلى . الضوضاء تملأ أصفر زوايا البيت الواسع ، وتصل الى أعتم أركانه ، بينما يطرق الباب الخارجى طرقا عنيفا متواصلا لا يصبر .

خرج عمر وأختــاه من الغــرفة . وهرعت عينى نحو الدربزين الحديدى الذى يحاذى الدهليز ، وهى لا تزال وسنى لا تعرف أين تضع قدميها . ان غدائر من شعرها تتموج فوق رأسها كالعوسج لا يستطيع المنديل أن يحبسها .

ــ ماذا جرى ؟

وأصلحت شعرها .

انه هرج لا يفهم : الســـكان ينــدفعون من غرفهم مسرعين ، متلاحقين ، ويتجمعون فى فنــاء البيت . وشوشات ، وصـيحات مفاجئة ، وبكاء أطفال صفار ، ووقع أقدام حافية .. كل ذلك كان ينتشر فى الدهليز والفنــاء والحجرات ، فى هذه الســاعة الساكنة الرطبة الكثيفة من الصباح . ان أولى أشعة الفجر تظهر . كان الظلام يتبدد خفية .

ضربات مطرقة ، ثم ضربات أرجل ، تهز الباب الكبير ذا المسامير .. بغير انقطاع .. والباب يظل مقفلا . لم يحاول أحد فى داخل البيت أن يقترب من الباب . كانوا يتساءلون :

ــ ماذا حصل ؟ ماذا وقع يا ناس ؟

قفز عمر الى السلم ، واختفى بسرعة ، قبل أن تســتطيع أمه الاتيان بحركة .

ــ عمر .. عمر .. ارجع .. حمى سوداء تأخذك ..

غاص الصبى فى جمهور النساء الذى تجمع فى الفناء ، ووقف عند مدخل الرواق .

– صه .. صه ..

هكذا صاحت أصوات مختلفة تأمر عينى بالصمت :

وصاحت زينة :

– أسكتى يا عينى ، دعينا نسمع ما يجرى .. ما هذه المصيبة ؟

ولكن عينى لم تلق بالا الى الاوامر التى تصل اليها من كل صوب ، بل استمرت تصيح مؤنبة مقرعة :

– عمر .. ارجع اذا كنت لا تريد أن أقطعك تقطيعا ..

ولم تجدها تهديداتها .. كالعادة ..

وسرعان ما قام فى البيت اضطراب قلق راعش . النساء يتشاورن فيما يجب أن يفعلنه . أيفتحن أم لا ؟. واستولت الحيرة على الحشد كله رجاءت العجوز عائشة الى الفناء ، بخطا صغيرة ، متحاملة على نفسها ، متسندة على الجدران . ورفعت عينيها الى السماء . قالت بصوت خافت :

– احمنا يارب ، اذا كنت تريد أن تقبل دعائى .

وركعت . وأخذت شفتاها تتمتمان .

تقدم الرجال بضع خطوات . انهم لم يمضوا الى أبعد من العتبة فى كل غرفة . ان بعضهم لا يزال مشغولا بشد حبل سرواله العريض

وحزمت امرأة أمرها قائلة :

– والله لأفتحن الباب ، فنرى من هذا ..

ان سنية هى التى حلفت هذه اليمين : ان سنية لا تهاب شيئا .. انها تفعل دائما ما تقول .

– لا يمكن ان يكونوا غير الشرطة .. الا تسمعين ضجتهم ؟ ما من أحد غيرهم يأتى على هذا النحو ..

قال رجل ذلك بصوت عال ثم صمت .

وقدر جميع الناس ما قدر .

لا يمكن ان يكونوا غير الشرطة .

شقت سنية الباب ، واخرجت منه رأسها : انهم الشرطة حقا – عشرة عساكر – متجمعون فى الشارع الضيق .. وهمت سنية بأن

تتراجع . ولكنها استجمعت قواها ، وسألتهم ما الذى جاءوا يبحثون عنه هنا .. انها لجريئة ، سنية هذه .. قالت :

– ليس عندنا لصوص ولا مجرمون فى هذا البيت . فماذا تريدون ؟

قال أحدهم :

– ماذا نريد ؟ أخلى الطريق ..

وغورت طائفة الشرطة فى الدهليز . كان يخب بينهم رجل قصير سمين يرتدى بدلة بلون بنى فاتح ، ويتحاشى أن يلمسه أحد مخافة أن تتسخ ملابسه .

تفرقت النساء مذعورات ، واختفين فى مثل لمح البصر فى الحجرات الاولى التى صادفنها . لقد أفقدهن الخوف صوابهن ، فكأنهن سرب من العصافير روع على حين غرة .

ووجد عمر نفسه وحيدا فى فناء المنزل . ان دمه يطرق صدغيه . شرطة .. ان قلبه يهم بأن يخرج من صدره . ود لو يستطيع أن يصرخ ، وهو متسمر فى مكانه : « ماما » واخضل جبينه . وأعول فجأة يقول :

– الشرطة .. الشرطة .. ها هم الشرطة ..

وقال بينه وبين نفسه : « ماما » ، أتوسل اليك ، لن أضايقك بعد الآن ، احمينى ، احمينى ..

تمنى فى عنف وحرارة أن تكون أمه « عينى » الى جانبه ، لكى تحيطه بما للأم من قوة هائلة ، لكى تبنى حوله سياجا لا يمكن أن يجتازه أحد .. ان رجال الشرطة يخيفونه اشد الخوف .. انه يكرههم ، هؤلاء الشرطة .. اين أمه ؟ أين هى تلك السماء التى تحرسه ؟ ..

وظل يصيح :

– شرطة .. شرطة ..

شعر فجأة أن فى امكانه أن يطلق ساقيه للريح ، فركض يختبىء عند لالا زهرة .

ان رجال الأمن يحتلون فناء المنزل . وها هم أولاء يتوجهون بالكلام الى السكان قائلين :

ــ لا تخافوا .. لا تخافوا على أنفسكم . فنحن ما جئنا لنؤذيكم. وانما نحن نؤدي واجبنا . فى أى غرفة يسكن حميد سراج ؟

ان الشرطى الذى خاطب سنية فى أول الامر ، تكلم هذه المرة باللغة العربية .

لم يجب أحد . لكأن دار سبيطار قد خلت من سكانها فى لحظة واحدة . لكن المرء يحس مع ذلك انها يقظى منتبهة .

ــ اذن فأنتم لا تعرفون ..

كان الهواء يزداد كثافة كلما طال الصمت . ان رجال الشرطة يحسون أن دار سبيطار أصبحت عدوة على حين غرة . ان دار سبيطار تعتصم بخوفها وبتحديها . ان دار سبيطار التى عكروا نومها وهدوءها تكشر عن أنيابها .

وأخذ رجال الشرطة يقرعون البلاط المصوت بنعالهم . ان الصدى يوسع الفراغ الذى يمتد بين سكان البيت ورجال السلطة .

وفجأة فتح باب فى الطابق الارضى ، فأحدث فتحه قرقعة قوية ، وظهرت من الباب قامة قصيرة ، هى قامة فاطمة . فهرع اليها رجال الشرطة حملة ثقيلة ، فقالت لهم :

ــ لا تتعبوا أنفسكم . أخى ليس هنا ..

أحاط بها اثنان منهم ، فلم يؤثر ذلك فيها . ودخل آخرون الى غرفتها فى مثل لمح البصر .

عندئذ ، أخذت النساء تعود الى فناء البيت ، واحدة بعد أخرى. قالت عائشة ، بدون أى وجل :

ــ ماذا فعل الفتى ؟ .. اننا نعرفه مذ كان يجرى فى الشارع ، ما أخذنا عليه شيئا فى يوم من الايام . انه لا يسيء الى نملة . وبأى شيء يمكن أن يسيء ..

أكانوا يفهمون ، أم كانوا لا يفهمون ؟ المهم ان رجال الشرطة لم يتحركوا . وكانت عيونهم الفارغة لا تلبث على شيء .

ان البيت يغلى غليان خلية النحل ، فالنساء يتحدثن فيما بينهن فى آن واحد . وتضخمت الضوضاء .

فتش رجال الشرطة الغرفة ، بعد أن أدخلوا اليها فاطمة . وفى هذا الوقت ، انطلقت أصوات بكاء من الركن المظلم الذى كان عمر قد

لطا فيه ، فتذكر الصبى عندئذ أنه قد لجأ الى غرفة لالا زهرة . انه لا يعرف لماذا لجأ الى هنا . ولكنه كان مسرورا . انها امرأة شهمة ، لالا زهرة هذه . انه يحبها كثيرا . ان فى وجهها من معانى الرقة واللطف ما لم يلاحظ مثله فى غيرها . ان الابتسامة لا تختفى من محياها .

واستمر البكاء . كانت « منون » المريضة ، راقدة هنالك ، منذ طردها زوجها وأرسلها الى أمها . ان أمها العجوز هى التى تسهر عليها . قالت لالا زهرة :

ـ الحمد لله على نعمه .

وكانت نظراتها متجهة الى فناء المنزل .

وكانت « منون » تردد وهى تنتحب :

ـ لن أراهم مدى الحياة ، لن أراهم يا أمى ..

ارتعش عمر لسماع هذه الكلمات التى تتردد بلهجة تعبر عن اليقين المطلق : بدا له أن أمرا حاسما قد وقع . أحس عمر بذلك احساسا غامضا .

ونظر الى الجسم الراقد . كانت لالا زهرة جالسة حول المريضة جلسة القرفصاء ، تقبلها من حين الى حين متأثرة أشد التأثر ، وتغمض لها عينيها بيديها .

ـ ستشفين يا حبيبتى .. بعد شهر .. وستعودين الى صغارك .. اذا هدأت نفسك .. الطبيب قال ذلك .

كانت المرأة العجوز تحدث ابنتها كأنها تحدث طفلا .

بذل عمر جهدا كبيرا حتى يظل ساكنا هادئا . وارتفع صوت منون يقول وقد فاض بالحزن :

ـ أعرف أننى سأموت .. يا أمى .. لن أراك بعد ذلك .. ولن أرى أولادى .

وخفضت صوتها ورددت تقول : « لن أراهم .. » ثم هدأت . وبعد فترة من سكون أخذت تغنى بصوت خافت :

اذا تحطم الليل

حملت دفئى الى الجبال الوعرة

فنضوت ثيابى على مرأى من الصباح

كتلك التى نهضت
تمجد أولى قطرات المياه
غريبة بلادى

التى تنطلق فيها رياح كثيرة

أشجار الزيتون تصطخب حولى
وأنا أغنى :

أيتها الأرض المحروقة السوداء

أيتها الام الأخوية
لن يبقى ابنك وحيدا

مع الزمان الذى ينشب فى القلب أظفاره
اسمعى صوتى

يتسلل بين الاشجار

ويحمل على الشفاه الابقار

وفجأة عادت منون تبكى . أرادت أمها أن تتكلم . لكنها لم تزد على أن هزت رأسها . ونظرت الى عمر ، ثم نظرت حولها كأنهـا تلتمس العون والعزاء .

كان صوت منون يدندن فى تلك اللحظة مرثاة لم تكن تصلح الا لها. ثم قالت :

ـ لن تروا بعد الآن أمكم يا أولادى
ان وجه لالا زهرة الوديع ، يظهر الآن متعبا .

وأحس الصبى ان هذا التعب ليس الا جزءا صغيرا من ألم كبير .

بعد لحظة الخوف الاولى ، أخذت النساء تتجرأ وتستخف برجال الشرطة ، وقد حبسن أزواجهن فى الحجرات .

وظهرت فاطمة . ان الشرطى الذى كان ممسكا بذراعها ، قد دفعها الى خارج . أخذت فاطمة تندب وتنوح ، وتلطم فخذيها لطما قويا . ان شكاتها تصاعد حادة ثاقبة .. ان دار سبيطار تهتز كلهـا من اللعنات التى يقذفها فم فاطمة فتترجع فى كل جانب من جوانبه . ان سكان البيت تنخلع قلوبهم وعقولهم بتأثير هذا الصوت الحاد ... وعندئذ قامت فى البيت كله ضجة مقلقة . ان هذا النحيب الذى

يعبر عن الكره والغضب يؤذن بالشقاء الذى هجم على دار سبيطار واقتحمها بخطا واسعة .

ان رجال الشرطة ينبشون الاوراق التى كان حميــد سراج قد جمعها عند أخته . كانوا يجمعون هذه الاوراق ، ومن أجل ذلك قلبوا الغرفة عاليها سافلها .

توقفت فاطمة عن الصراخ ، وأخذت تندب فى رفق :

— ويلى عليك يا أخى .. ما الذى ســـيقع لك ؟ .. ما الذى سيصنعونه بك ؟ .. ويلى عليك يا أخى ..

كان يأسها الطافح ، الرتيب ، الثقيل الى أبعد حدود الثقــل ، يسير كعربة متعبة .

وكانت منون تهذى فى غرفتها بصوت ضعيف . لقد اختلط عقلها منذ بضعة أيام . فقدت وعيها ، انها تجهل الآن ما يقع حولها . وكانت لا تزال تردد :

— لن أراكم بعد الآن يا أولادى .

وعاد غناؤها الى شفتيها رقيقا عذبا ، يمزق القلب :

جاء هذا الصباح من أصباح الصيف
هادئا أكثر من الصمت
أشعر بأننى حبلى
يأيتها الام الاخوية

النساء فى أكواخهن
ينتظرن صياحى

ورددت عدة مرات ، دون أن تدرك معنى ما تقول :

أيتها الأم الأخوية

النساء فى أكواخهن
ينتظرن صياحى

كان عمر حائرا لا يعرف كيف يمكن أن يقدم معونة ما . ورجال الشرطة يملأون الدار الكبيرة بحركاتهم . ترى متى يذهبون ؟ .. وأصغى مرة أخرى الى الغناء الذى ارتفع فى ظلام الغرفة :

يقولون لى : لماذا ..

لماذا تمضين الى زيارة عتبات أخرى .

كزوجة مطرودة ؟
لماذا ، أيتها المرأة ،
تهيمين على وجهك حائمة ·
حين تطوف أنسام الفجر بالربى ؟

وفجأة ، فى أعلى المنزل ، انفجر صياح امرأة اخرى . انها عاتكة .. المجنونة البائسة ، ترسل صرخاتها الغامضة فى الهواء . صوت حاد يترجع بلا توقف ، ويثقب القلوب الموجعة ، قلوب سكان البيت · وأخذ الهواء يهتز ·

حمحم الرجل القصير السمين يقول :
ـ نحن لم نجىء الى هنا الا للتفتيش . هذا كل شىء ..

أصبح عمر لا يطلب قطعة من الخبز مغموسة فى ماء العين : حين تنصب علينا الكوارث ، نذهل عن الجوع . أصبح عمر لا يفكر . لقد تطامن جوعه ، أصبح جوعه الآن بعيدا ، لم يبق منه فيه الا ما يشبه غثيانا غامضا لا يهدأ .

ان به دوارا . كان يمضغ لعابه ويبلعه . ان هذا يولد فى نفسه ميلا غريبا الى القىء . انه لا يجد فى داخل نفسه الا فراغا ، وفوق هذا الفراغ تتأرجح ذكرى ما أكله بالأمس . ولكن كيف يمكنه ، وهو فيما هو فيه من مثل هذا الاشمئزاز ، أن يحتمل قليلا من الطعام .. لن يستطيع أن يبصق هذا الرماد المتخلف عن الساعات الطويلة التى لم يذق خلالها طعاما ، لن يستطيع أن يبصقه تماما .

أنا التى أتكلم ، يا جزائر .
قد لا أكون الا أتفه نسائك .

ولكن صوتى لن يتوقف .
عن النداء فى السهول والجبال .

اننى هابطة من الاوراس ·
فافتحن أبوابكن .
يا أيتها الزوجات الاخويات ..

قدمن لى ماء باردا ..
وعسلا وخبز شعير .

ما كاد الغناء يترجع مرة اخرى فى الغرفة ، حتى اقتحمها رجال

الشرطة ، وجمدوا لا يتحركون . انهم لم يميزوا أول الامر شيئا فى الظلام . ولكن ترددهم لم يطل . فما هى الا لحظة ، حتى قلبوا كل شىء .

اقتربوا من لالا زهرة وابنتها المتمـددتين على الارض ، فجروا المريضة التى كانت مكشوفة الى منتصف الفخذين ، وفتشوا المكان الذى ترقد عليه .

ودوت انتحابات منون ، وتحولت الى نداء حار تجاوز الفـرفة المضطربة . ان صرختها الحزينة التى ودت لو تطرد بها الداء الذى ينهش صدرها ، قد انفجرت أقوى من الضجة والجلبة اللتين جاء بهما رجال الشرطة ، وفجأة عاد الصياح غناء :

جئت لأراكم
لأحمل اليكم السعادة ،
الا فليكبر أبناؤكم ،
ولينبت قمحكم ،
وليختمر خبزكم ،
ولتنعموا بالحياة لا يعوزكم شىء ،
ولتحالفكم السعادة .

تحير رجال الشرطة ، وانقطعوا عن التفتيش ، وتركوا الفرفة ، وعادوا مرة أخرى الى الفناء .

كانوا قد منعوا فاطمة من الدخول الى غرفتها . فقرفصت تنتظر فى فناء البيت ، ومن حولها أطفالها . فتشوا كتب حميد فاستولوا على بعض المؤلفات وعلى جرائد قديمة وأوراق ، ثم حملوا جزءا من هذا كله ، وبعثروا الباقى فى الفرفة والفناء . ومضوا . فاستطاعت فاطمة أن تعود الى غرفتها .

كانت الشرطة تجىء الى الحى لألف سبب وسبب : وكانت تقبض على شباب وكهول ، لا يراهم بعد ذلك أحد .

لا تزال تتعالى فى دار سبيطار صيحات الاحتجاج من الشـيخ العجوز بن سارى . ولكن رجال الشرطة كانوا قد ذهبوا . كان بن سارى يصيح :

— لابد أن أمثل أمام القضاء . ما يسمونه قضـــاء ليس الا

قضاءهم .. هو قضاء ما أوجدوه الا ليحميهم ، ليضمن سلطتهم علينا ، ليحطمنا ، ليذلنا . أنا فى نظر قضاء كهذا مجرم دائما . لقد حكم على هذا القضاء من قبل أن أولد . انه يحكم علينا دون أن يكون فى حاجة الى ذنوب نرتكبها . هذا القضاء قد أوجد ليحاربنا.. انه ليس قضاء جميع البشر . لا أريد أن أخضع لهذا القضاء .. اللهم اننا لن ننسى هذا الحقد .. لا ولا السجون التى يسجن فيها أعداؤنا رجالنا .. الدموع تصرخ فى وجه عدالتكم هذه .. الدموع والاحقاد .. ولسوف تردها الى الصواب .. ولسوف تنتصر عليها. اننى أقولها على رءوس الاشهاد : كفى .. كفى . ان هذه الدموع ثقيلة الوقع فى القلوب .. ومن واجبنا أن نصرخ .. أن نصرخ فى آذان جميع من فى آذانهم صمم .. اذا كان قد بقى فى هذه البلاد من فى أذنيه صمم .. ولقد فهمتم أنتم .. فما هو جوابكم ؟ ..

صبت عينى فى طبق معدنى كبير الحساء المغلى الذى فى الحلة .. انه حساء بالشعيرية المفتتة والخضار . ولا شىء غير هذا .. لا خبز . لم يكن عندها خبز .

صاح عمر :

ــ أهذا كل شىء ؟ .. حساء بلا خبز ؟ ..

كان عمر واقفا عند فرجة الباب ، مباعدا ساقيه ، ينظر الى المائدة والطبق الذى تفوح منه رائحة الفلفل الاحمر .. وقدامه أمه وعيوشة ومريم .

وردد يقول فى غضب وحسرة هذه المرة :

ــ أهذا كل شىء ؟ ..

قالت عينى :

ــ لم يبق عندنا خبز . الخبز الذى جاءتنا به لالا نفد منذ أمس ..

ــ فكيف نأكل الحساء يا أمى ؟

ــ بالملاعق .

وانغمست الملاعق فى الطبق فلم يلبث عمر أن قرفص الى جانب الآخرين .

انهم يلفون صامتين ، فى اطراد يشبه أن يكون آليا ، الحساء الذى يسلق أفواههم بمرقه الساخن كانوا يشرقونه شرقا ويبلعون ، فيحسون بدفء طيب ينساب فى أجسامهم . انه لذيذ ، حساء الشتاء ..

ــ على مهلك يا بنت ..

ــ من ؟ .. أنا ..

سألت عيوشة هذا السؤال وهى تنتفض . وغصت بالحساء ، بينما تخضب وجهها بالحمرة من المرق السخن . ولكن ذلك لم يحملها على التوقف عن تناول جرعات كبيرة بملعقتها . وقالت :

— أنظرى الى يا مريم ..

فقالت عينى عندئذ لمريم مهددة :

— ليس الطعام لك وحدك يا مريم .

وأضافت عيوشة تخاطب أختها :

— كلى الطعام كله ان شئت ! ..

فرفعت مريم رأسها ، وهى صفراهم ، فراتهم جميعا يحدقون الى بياض عينيها . فخفضت رأسها .

ان الفلفل الذى تضيفه عينى الى الحساء بهارا يلذع السنتهم . يشربون ، ثم يشربون ، ثم يشربون ، فتنتفخ بطونهم . من أجل هذا انما تصنع عينى حساء كهذا الحساء .

سرعان ما نفد الحساء القليل الذى وضعته عينى على المائدة فأصبحت الملاعق لا تقحف الا قاع الصحن .

ان جوعهم يستيقظ الآن . ان هذا الطعام اللاذع الذى التهموه قد أثار جوعهم .

تخاطف الاولاد الصحن ، وراحوا يجففونه فى همة ونشاط . استطاعوا أن يحصلوا على بضع قطرات أخرى من الحساء . وكان لا بد لهم بعد ذلك من الاستعانة بالماء ، يملأون به معدهم . فمالوا على القادوس الكبير الذى كان موضوعا الى جانب عينى ، فأكملوا بمائه شبعهم .

وحين رأتهم عينى يقتربون ، أوصتهم بقولها :

— تمخطوا أولا يا أولاد .

وسرعان ما ابتعدوا عن المائدة ، وزحف كل منهم الى ركنه . ثم تمددوا على الارض واحدا بعد آخر . وخيم الصمت فى الغرفة .

كانت عينى جالسة على جلد خروف ، باسطة ساقيها أمامها .

انقضت بضع دقائق على هذه الحال . وأفاقت عينى من تأمل لا موضوع له ، فسألت عيوشة أن ترفع هذه المائدة بسرعة .

— دائما أنا .. ليتنى أموت .. عسى أن أرتاح بعد ذلك .

قالت عيوشة ذلك ، وطلبت من مريم أن تساعدها فى رفع المائدة .

أمسكت البنتان بالمائدة ، ومضتا بها الى المطبخ .. الصغيرة تتقهقر وعيوشة تدفعها أمامها .

ان سكان البيت يقبعون الساعة فى غرفهم : دار سبيطار تستريح فى هذه الفترة من النهار . هذا وقت القيلولة . يكاد المرء يحس فى هذه الايام الاولى من شهر آذار ، انه فى فصل الصيف .

كل واحد فى الغرفة قد أوصد نفسه على فكرة شخصية .

كانت عينى تقول لنفسها :

ـ لا شك أن بطوننا واسعة جدا .

لقد رقدوا جميعا دون أن ينظر بعضهم الى بعض . كانوا يقولون لأنفسهم : وجوه كلاب . وجوه نحس . وجوه صفراء .

انهم فى الايام الاخرى التى يعلمون أن ليس عندهم فيها ما يأكلونه، يتمددون على غطاء أو على جلد خروف ، أو على الارض ، أو على البلاط .. دون أن يسألوا عن شيء ، فهم يلزمون صمتا عنيدا ، فاذا جاء وقت الطعام ، تظاهروا بأنهم يجهلون ذلك . وكانت مريم تبكى قليلا فى بعض الاحيان .

انهم فى سائر النهار أقل جهامة : حتى اذا اقتربت ساعة الطعام ، عاودهم شاغلهم الوحيد . فانقطعت مريم وانقطع عمر عن اللعب ، وارتسمت على وجوههم معانى الغضب .

كانت عينى ، فيما مضى من زمان ، تستطيع أن تهدئهم بحيلة ماكرة : كانوا يومئذ صغارا .

كان يكفى أن يكون عندها قليل من فحم ، عند المساء ، حتى تملأ الحلة ماء ، وتدع الماء يغلى على النار ، وتطلب الى أولادها الذين ينتظرون بفارغ صبر ، أن يهدأوا قليلا . انها تقول لهم من حين الى حين :

ـ اصبروا قليلا .

فكان الاولاد يزفرون زفرات آذعان . وكان الوقت ينقضى .

ـ سيكون الطعام جاهزا بعد لحظة .

وفيما هى تقول لهم ذلك ، يغلبهم نعاس لا حيلة لهم فى دفعه ، فتطبق أجفانهم بثقل كأنه ثقل الرصاص . وكانوا ينامون .. ثم يغرقون فى سبات عميق .. ان صبرهم لا يمكن أن يدوم مدة طويلة . نعم كانت الحلة لا تحوى الا ماء يغلى .

وكانت زليخة ، التى تسكن تحت ، تلجأ الى هذه الحيلة نفسها

مع أولادها .. وهم أربعة صبيان لا يكادون يقوون على الوقوف على أقدامهم الرخوة . كان الخبز يعوزها فى أحيان كثيرة ، كما كان يعوز عينى . وكانت تصرخ قائلة لأبنائها :

ـ ماذا تريدون منى ؟ ماذا تريدون من هذه المسكينة ؟ انكم تجلبون لى العار . أين عساى أبحث لكم عن خبز ؟

وكانت تتناول عندئذ قبضة من الفاصوليا الجافة ، فتقذفها لهم فى أرجاء الغرفة ، فيرتمى الصغار على الارض يبحثون عنها ، حتى اذا عثر أحدهم على واحدة من تلك الحبات البيضاء المبعثرة ، راح يقضمها . وكان الصغار يهدأون ، وكانت الام تنعم عندئذ بالراحة الى حين .

ـ هيه ؟ تغديتم ؟

سألت الجارة هذا السؤال وهى تقف على درجة المدخل . فأجابتها عينى بقولها :

ـ لا تقولى ، يا عزيزتى زينة ، اننا تغدينا ، بل قولى اننا خادعنا الجوع . نحن نتمنى لو نتغدى ، طبعا نتمنى ..

قالت عينى ذلك ، وبدا عليها انها تغرق فى تفكير عميق . أكانت كلمات الجارة هى السبب فى ذلك !

ثم اردفت تردد :

ـ اننا نقضى وقتنا فى خداع الجوع .

وضحكت فى صمت .

فعلقت الجارة على كلامها تقول :

ـ وتسكتون الجوع ، أليس كذلك ؟ هذا ما نفعله نحن كل يوم ..

لا شك أنها أرادت أن تقول انها معتادة على هذا هى أيضا .

وتابعت عينى كلامها دون أن تنتبه الى ما كانت تقوله زينة :

ـ كان بودنا لو نأكل فى هذه الساعة أكثر مما أكلنا .. نعم . اننا لا نصل حتى الى قليل من الفول أو البازاليا ، مع انها لا تكاد تكلف شيئا فى هذه الايام .

فأمنت الاخرى على كلامها تقول :

ـ من ذا الذى لايتمنى أن يحصل على شىء من الفول او البازاليا.

ثم تابعت :

ــ ان ابنى حمادى يعمل . ولكن ذلك لا يجعل الامر اسهل فى الحقيقة ..

قالت عينى :

ــ أما عندنا يا أختى فأنا التى أعمل للأسرة كلها . آه .. ياما رأيت .. ياما رأيت ..

كانت هذه الجارة تصطنع الأدب والتهذيب دائما ، وكانت تعامل عينى بمزيد من التوقير والاحترام أيضا .

قالت :

ــ وأنا ؟ أتظنين اننى لم أر شيئا ؟

أخذت زينة تتحدث بلهجة البوح والافضاء ، ولكنها ما لبثت أن توقفت عن الكلام . انها تتردد . لا لانها انتهت من الحديث ، بل لأنها نظرت الى عينى وصغارها فرأت ان لهم نصيبهم من الشقاء .

ــ انهم ثلاثة رجال ، أولادى . والنساء ثلاث أيضا : أنا وابنتاى. وليس بيننا الا واحد يأتى بطعام الى المنزل . ولكن ابنى الثانى هذا لا يستطيع أن يطعم خمسة أشخاص ، رغم كل ما له من قوة . الذين لا يعملون لابد لهم من ذلك أن يأكلوا .

لم يكن يسر زينة ان تزعج جيرانها بهذا الحديث . وودت لو أنهـا لم تنطق بهذا الكلام الزائد . وودت لو يمنعها أحد عن هذا الحديث ، لانها لم تكن تستطيع أن تتوقف عنه من تلقاء نفسها .

قالت عينى محتجة ، وهى تحاول أن لا تقل عن جارتها أدبا ولباقة :

ــ اسمحى لى .. لو كنت فى مكانك لمـا قلت هذا الذى تقولين .

كان الاولاد الراقدون على الارض ساكنين ، لم تنفرج شفاههم عن شىء ولا قاموا بحركة من الحركات . كانوا يسمعون الحوار خفية .

ونهضت عيوشة قليلا ونظرت الى المرأتين ، ثم عادت الى وضعها .

أجابت الجارة :

ــ لك ما تشائين ، والامر فى النهاية واحد ..

قالت عينى تعتذر :

ــ ذلك أننى صريحة ، أعلن ما يجول بخاطرى ، واعبر عما يعتلج فى قلبى . اظن أن من واجبى ان أقول لك انك ظالمة قليلا .

قالت الجارة مؤيدة :

ـ انني لمعجبة بك أشد الاعجاب . انني أعرف ما تقومين به من عمل مرهق . وأنت فى الحق فخر أسرتك وانت نجدة لها من السماء . انك أنت المعيل للأسرة . فعلى الذين يعيشـــون معك ، على الذين يعيشون من عملك أن يعتزوا بك .. انني لمعجبة بك أشد الاعجاب ..

ـ نعم ، أنا التى أعمل هنا لجميع أفراد الأسرة .. وهأنت ذى ترينهم بأم العين .. كانت الكبرى لا تزال تبول على نفسها حين تركهم لى أبوهم .

قالت عينى ذلك ، والتفتت تشير اليهم بأصبعها . أحس عمر أن هذا الذى تتحدث عنه أمه للجارة هو معجزة الدنيا . ونهضت عينى ، ربة هذا العمل وصاحبته ، والتمع فى عينيها شعور حقيقى بالزهو والخيلاء . وابتسمت فى تواضع .

أضافت عينى تقول :

ـ قلت انني أعمل من اجلهم . صـــحيح . ولا شـــك أننى أتعب وأتحطم ، وأكسر رأسى تكسيرا .. ولكن هذا رزقهم . رزقهم الذى يحق لهم . يجب أن يصل حتى الى أفواههم . ما من أحد يستطيع أن ينتزعه منهم .

هل كسر الخبز اليابس التى تهبها لهم الخالة حسنة من حقهم أيضا ؟ قلب عمر هذا السؤال على جميع الوجوه ، ولم يستطع أن يجيب عنه . لا بد له أن يصدق ذلك : والا فكيف يفسر أن لالا تجىء من تلقـــاء نفسها ، فى كل يوم من أيام الخميس ، وهى ذاهبة الى المقبرة ، لتحمل اليهم هذه الكسرة من الخبر اليابس ؟ .

كانت زينة تصغى الى الحديث ، وقالت لها عينى فى توقير :

ـ من أجل هذا قلت انك ظالمة قليلا . فأنت وأولادك انما تأكلون ما قسم لـكم .

أجابت الجارة الطيبة :

ـ صحيح .. ولكن الانسان كثيرا ما ينسى هذه الامور .

ـ واذا نسى يئس .

أحس الصغار احساسا غامضا باعتزاز بأمهم .

وعادت عينى تردد :

ـ أنا التى أعمل . وانى لأفنى فى ذلك دمى . ولكن هذا واجب .

ـ لا أشك فى ذلك . الم أقله دائما ؟ انك امرأة شجاعة ، نشيطة أنت تتولين بنفسك عجن خبزك ، وصنع كسكسك ، وغسل غسيلك انك تعرقين فى سبيل أن تعيلى أولادك .

ومضى وقت . واستأنفت زينة تقول :

ـ ولكننى أعتقد أننا ، وان استمتنا فى العمل ..

نهضت عينى ، وحملت جلد الخروف الذى كانت جالسة عليه ، وقعدت الى جانب جارتها ، كتفا الى كتف وقالت :

ـ لن نصل الى ذلك . فلسنا نملك من القوة ما يكفى لهذه المهمة .

وسألت عينى :

ـ ذلك لان .. ماذا قلت ؟.

ـ القرش أبعد منالا من أن نصل اليه ، نحن المساكين . وقد نتعب حتى تتحطم عظامنا من التعب ، دون أن نصل اليه . أما اذا لم نعمل .. هه .. تريدين أن تعملى لكى تأكلى ؟ انتظرى الى غد .. هذا ما يقولونه لك دائما .. والغد لا يأتى أبدا ..

قالت عينى :

ـ صحيح .

كانت تبذل جهودا واضحة من أجل أن تفكر . لم تكن قد توصلت بعد الى تحريك أفكارها .

هتفت عينى تقول :

ـ هذا ما يجب أن نعرفه .

فأجابت الجارة موضحة :

ـ كان المرحوم زوجي يقول ذلك . وكان يحاول أن يشرحه للآخرين : فكانت النتيجة أن ألقى فى غياهب السجن . كم مرة ومره

ـ ألأنه كان يقول هذا الكلام ؟.

ـ نعم لا لشيء آخر غير هذا الكلام ..

ـ لا يلقى امرؤ فى السجن لأنه يقول كلاما صادقا .

ـ قولى .. لماذا جاء الينا فى هذا الصباح رسل الشقاء هؤلاء الم يجيئوا للقبض على حميد سراج ؟.

قالت عينى تشتم :

ـ بلية من السماء .. لعنهم الله جميعا ، ولعن من أرسلهم ..

ـ هل حميد قاطع طريق ؟
لم تجد عينى ما تقوله .
قالت زينة تشرح :

ـ لم يعد عارا أن يذهب امرؤ الى السجن فى هذه الايام . واذا ألقى هذا الرجل فى أعماق السجن ، فانه لفخر أن يذهب اليه بعده من يذهب .

ـ زينة ، أختى ..

ـ أقول لك الحقيقة ..

ـ الذى أخافنى أنا ، انما هو السمين القصير .

ـ هو المفوض . هل لاحظت ؟ ان له عينين تأباهما الوحوش .

ظهر الاستغراب فى قسمات عينى ، حتى صار وجهها فى هذه اللحظة أشبه بوجه فتاة صغيرة . قالت بصوت خافت :

ـ اننا نرى كم يقاسي رجالنا ..

قالت الجارة مؤيدة :

ـ كان زوجى مثل حميد . لا بد أن حميد قال بعض الاشياء . لا شك أنه قال أشياء كثيرة .

ان زينة هى التى جاء دورها لتبدو مزهوة . ولكنها ظلت ساهمة . ودت عينى لو تنتهز هذه الفرصة لتعود الى الموضوع الاول الذى كان يدور عليه الحديث . لم تنس هى الاخرى زهوها .

ولكن المرأتين أخذتا تفكران معا فى حميد . ترى ما الذى سيقع له بعد أن جاءت السلطات تبحث عنه ؟.

فى الاوقات الاولى ، لم يشعر احد بوجود هذا الرجل ، الذى لايزال شابا . لقد سكن هذا البيت منذ قليل . تم مجيئه الى هذا المنزل بغير ضجة . لم يسمعه أحد يتكلم . كان لا يظهر نفسه الا فى كثير من التحفظ ، وقد عد ذلك منه آية من آيات التهذيب . شىء غريب . لقد كان يلتزم الصمت ، وحقا لم يكن ينتبه اليه أحد . ولكن حين عرف فى المنزل أنه آت من تركيا ، انصبت الاعين كلها عليه حتى لكأن كل فرد يستغرب كيف لم يلاحظ فيه ذلك من قبل .

كان مظهر حميد سراج ينم عن سنيه الثلاثين . ورغم البساطة التى تضفى على وجهه معانى السذاجة والطيبة ، لم يكن بالمرء من

حاجة الى ملاحظة مرهفة حتى يدرك انه رجل رأى كثيرا ، وعاش كثيرا ، كما يقال . كان فى هيئته هدوء وحزم ، على غير استخفاف مع ذلك . كان يتكلم بصوت خافت جميل الوقع فى الاذن ، بطىء بعض البطء . وهو قصير القامة ، ولكنه ممتلىء الجسم .

ان المرء يتوقع أن تكون استجاباته سريعة ، وأن يكون كلامه متدفقا طلقا . حتى اذا رأى مشيته البطيئة ، وحركاته الثقيلة القوية ، وسمع صوته المتحفظ ، شعر بشىء من الاستغراب . ان حياته تبدو لمن يقاربونه ملأى بالاسرار . لقد أخذ الى تركيا وهو لايزال صبيا صغيرا فى الخامسة من عمره ، وذلك أثناء الهجرة الكبرى التى جعلت عددا كبيرا من الناس فى بلادنا يهرب الى تركيا ابان حرب ١٩١٤ ، حين جعل التجنيد اجباريا .

وفى تركيا اختفى حميد سراج وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، لا يعرف الا الله أين اندس . وغاب بضع سنين ، دون أن يرسل شيئا من انبائه لا لأبويه ولا لأخته الوحيدة التى بقيت فى الجزائر . وعادت أسرته من تركيا دون أن تعرف شيئا عن المصير الذى آل اليه.

وفى ذات يوم ظهر . وأخذت الشرطة تراقب روحاته وغدواته .

ان أغرب ما فيه هو تعبير عينيه الخضراوين ، الصافيتين أشد الصفاء ، اللتين يبدو أنهما تنفذان فى الناس والاشياء نفاذا عميقا . وكان صوته ، حين يتكلم ، يثبت الكلمات التى يلوح ان نظرته الغريبة تقرؤها فى الافق البعيد ... ان غضونا تخدد وجهه منذ الان ، وان شعر رأسه يتساقط ، فيتسع من ذلك جبينه ، ويبدو عاليا علوا كبيرا .

كان يندر أن لا يرى المرء فى جيوب سترته العريضة القديمة الرمادية كتبا كانت أغلفتها وصفحاتها تنفصل ولكنها لا تضيع ، لان حميدا لا يدعها تضيع أبدا . وهو الذى أعار عمر ذلك الكتاب الذى عنوانه « الجبال والرجال » . فراح الصبى يفك رموزه فى صبر وأناة ، صفحة بعد صفحة ، دون ان تخور عزيمته ، واحتاج الى اربعة أشهر لاتمام قراءته .

كانت الجارات تسألن فى أول الامر :

— أين تعلم القراءة ؟

ثم يضحكن مقهقهات • فتجيبهن فاطمة ، اخته ، بقولها :

ـ تعلم القراءة بنفسه ، وحده ... فاذا كنتن لا تصدقن ذلك ، فما عليكن الا ان تجئن لترين ..

فكن يقتربن من عتبة الباب ، فتمد الطلعات منهن رءوسهن وراء تقويرة الستارة التى تغطى الباب ، ثم يتراجعن بسرعة خجلات، فى الليل انما كان يقرأ حميد سراج على ضوء مصباح صغير . ان الليل هو فترة الهدوء . ان جو الهياج فى دار سبيطار يتطامن منذ الساعة الثامنة من المساء . ان المرء ينتظر هذه اللحظة ليتنفس الصعداء .

فى هذه اللحظة كانت النساء تمضى تتلصص على حميد فى كثير من الاحيان . انه ما ينفك يقرأ . وكن يرجعن من هذا التلصص راكضات، بحركات كأنها حركات سرب من الطيور روع .. وأثوابهن تحف حفيفا كبيرا .

ـ نعم ، صحيح ..
ـ رأيناه بأعيننا .

وكن يضحكن لا لأن شكا يراودهن الان بل لأنهن يرين انه أمر مستغرب أن يقرأ رجل كتبا . لماذا ينفرد هو بهذا ، بين جميع الرجال الذين يعرفنهم ؟.

هذه الكتب الكبيرة ذات الصفحات الكثيرة المطروسة باشارات مرصوفة سوداء صغيرة ، كيف يمكن أن يفهم منها المرء شيئا ؟.
قالت احدى النساء لفاطمة :

ـ غريب أخوك يا فاطمة . انه ليس كرجالنا ؟ فلماذا ؟ لعله يريد أن يصبح عالما ؟.

فانفجرت النساء ضاحكات مقهقهات .

ولكنهن شعرن نحو حميد بمزيد من الاحترام ، شعرن نحوه باحترام جديد لا يستطعن هن أنفسهن أن يفهمنه ، احترام يضاف الى الاحترام الذى يشعرن به فطرة تجاه كل رجل . اصبحن ينظرن الى حميد نظرتهن الى رجل يملك قوة مجهولة . وتعاظم الاعتبار الذى يتمتع به حميد فى نظرهن تعاظما لا يكاد يتصوره الخيال .

وكان أزواجهن يحيون حميد باحترام كبير أيضا . ان العلم يتمتع

فى بلادنا بتقديس عظيم ، تقديس يبلغ من العظم أن أناسا من أدعياء العلم يستغلونه بسهولة ، كما يستغله أناس من أدعياء النبوة .

وكان حميد لا يلاحظ شيئا من هذا كله ، كما لم يلاحظ ، فى الايام الاولى ، فضول النساء .

كان سكان دار سبيطار لا ينتبهون اليه حتى ذلك الحين الا انتباها غامضا متسليا (على أن الحق يقتضينا أن نذكر انصافا لهؤلاء الناس البسطاء أن ذلك الانتباه لم يكن فيه شيء من الانتقاص لاحترام الرجل أبدا) . انى لاذكر أن فضولهم (والفضول لم يعوزهم حقا) لم يشتمل يوما على سوء .

غير أن ثمة سؤالا كان يشغلهم حين يجيء ذكر حميد ، وهـــذا السؤال هو : لماذا يقرأ حميد هذه القراءة كلها ؟ ولم يستطيعوا يوما أن يأتوا بجواب شاف عن هذا السؤال .

تابعت زينة كلامها تقول :

ــ طبعا ، كان مثل حميد سراج .

ولم تتح لعينى أن تقول كلمة واحدة . كانت تتحدث بدون أى مراعاة ، فاذا هى تطعن كرامة عينى ، على غير شعور منها .

وكررت تقول :

ــ مثل حميد تماما .. يدخل ، ويخرج ، ولا يلاحظ شيئا ، ذلك كل ما كان يجيده . كان لا يعرف الراحة .

واظلم وجهها . وشيئا فشيئا اتقد فيها غضب أصم . ولكنها كانت لا تستطيع مقاومة تعبها .

ــ كان رجلنا لا يأكل ولا ينام ، مثل حميد ، كان لا يحيا الا من أجل هذه الاجتماعات ، كان لا يعيش ، لانه كان لا يفكر الا فى هذا . كنا نبقى أياما وأسابيع لا نراه فى البيت . وكنا لا نستطيع أن نقول له شيئا . كان لا يتكلم كثيرا ، وكان كلامه يقل يوما بعد يوم . كنا لا نجرؤ ان نقول له ان خبزنا نفد . كان يتألم . وكان فى بعض الأحيان يأخذ يتكلم . كان كلامه عندئذ أشبه بالماء يتدفق فى مجرى صــخور صلبة . كان يتكلم .. ويتكلم .. وكنا لا نفهم دائما . ومن نحن ؟ ما أنا الا امرأة مسكينة .. اننا لم نتعلم ، ولم نهيأ للفهم . وكان يعود من اجتماعاته السرية متبدلا . ان فى رأسه فكرة تعذبه . وكنا فى

بعض الاحيان نلاحظ فى عينيه معنى من معانى النصر . كان ذلك شيئا رهيبا . كانت له لحظات . وكان عندئذ لا يستطيع ان يمسك نفسه عن الكلام ، فيدمدم قائلا : « انتصرنا عليهم .. اضطروا الى الرضوخ » .

فكنا نقول : « أى انتصار تعني ؟ » . فلا يجيب .. لا يضيف على ما قال كلمة واحدة . ويعود يفرق فى التفكير . ظننا فى أول الامر أنه يشرب أو يعاشر . ما أكثر ما تخيلنا ! ولكن لا .. وكنا نؤثر أن يكون ذلك هو الواقع .. فى حقيقة الامر .. كنا نؤثر أن يعاقر أو يعاشر بدلا من تلك المناقشات فى قيعان الدكاكين والمقاهى والبيوت فى الاحياء البعيدة . ثم أصبحنا نخاف منه .. بدأت الشرطة تسأل عنه . ولكنا لم نجرؤ أن نفتح أفواهنا بكلمة . وما عسانا نقول له ، يا أختى عينى ؟

كان يرى أننا نموت جوعا .. وهو امرؤ يفهم أشياء كثيرة .. كثيرة جدا . كان هو الذى يدل الناس على طريقهم . كان الناس يأتون اليه يلتمسون النصح . أما فيما يتصل به هو ، فكان غارقا فى الظلام . كان يقول : « هذه الاجتماعات ، هذه الروحات والفدوات ، هذه الغيبات الطويلة ، انما هى من أجل حياة أفضل » . وما دام الامر كذلك ، فهل كان فى وسعنا ان نمنعه من أن يفعل ما يريد ، خاصة وأنه فى سبيل تبديل حياة الناس الفقراء ، وفى سبيل جعلهم سعداء . وما كان أشد غضبه حين كنا نقول له انه ينخرط فى هذه الامور أكثر مما ينبغى .. كان يريد أن يقلب العالم ، لو أوتي القدرة على ذلك أو يموت .. أو ما لا أدرى أيضا .. يا لى من امرأة تعيسة .. كنا لا نفهم شيئا من هذه الامور . كنا ندعه وشأنه ، ونصمت . وحين كان الاولاد يبكون لانهم صائمون لم يذوقوا طعاما منذ أمس ، كنت أحس اننى على وشك الجنون . ان هؤلاء الذين ترينهم الان كبارا ، لم يكونوا يومئذ الا جش شعير . كيف أحملهم على الصبر ؟ كنا قد بعنا كل شيء ، وأصبحنا لا نملك شيئا .. ثم ذهب .

انه ، حين مات ، لم يترك لنا ما نأكله فى الليلة الاولى بعد موته .

كان فى لهجة زينة ، فى آخر الحديث ، من وقار الصوت ، ما أوجد فى الغرفة جوا غريبا من الصفاء ، عدا ما كان فى هذه اللهجة من أصداء تعب لم يهدأ .

ـ وطبعا لم يكن السبب فى ان زوجى بقى بلا عمل ، هو انه بلا قوة أو بلا كفاءة .. وانما كان السبب هو ان له أفكارا تتدفق فى رأسه
ـ طبعا ذلك هو السبب .
كانت عينى قد أصغت اليها صامتة طوال تلك المدة .
فقالت :
ـ لا أشك فى أنه كان ذا قوة وكفاءة .
ـ كانت له أفكاره . لم يكن ثمة ما نأخذه عليه . كان يريد أن يسير على ما تمليه عليه أفكاره ، وحافظ دائما على شرفه وكرامته . لم يكن ثمة ما نأخذه عليه .
قالت عينى :
ـ اذن لم يكن الذنب ذنبه .
وعادت الى الصمت .
ـ طبعا .. لا .. من ذا الذى قال ان الذنب ذنبه ؟
ـ اذن كان الذنب ذنب من ؟
ـ تسألينني الذنب ذنب من ؟
ـ نعم ، الذنب ذنب من ؟
ولم تستطع المرأتان أن تبعدا هذا السؤال الذى طرحتاه خلسة ولا أن تجيبا عنه وتوضحاه .
وثنت عينى ذراعها تحت رأسها .. ثم لم تصبر على هذا الوضع فتمددت حيث هى ، فى المكان الذى كانت جالسة فيه تتحدث اليه جارتها ، وأخذت تنظر الى السقف حائرة .
ونهضت الجارة تريد أن تذهب . فهزت عينى كتفيها قليلا وقالت
ـ روحى ابحثى كان الذنب ذنب من ؟
فأدارت الجارة ظهرها ومضت وهى تهز رأسها .

— ١٠ —

منذ فتشت قوى الشرطة دار سبيطار ، لم يطرأ أى حادث جديد يعكر حياة البيت الكبير • كان حميد سراج يستدعى الى القسم كثيرا ، وأصبح ذلك أمرا مألوفا •

ووصل الربيع ببطء ، فأطلع أولى الاوراق النحيلة الراعشة فى شجرة الكرمة التى كانت أغصانها المتشـابكة تكلل فناء البيت •

والى دار سبيطار نفسها تسللت عذوبة حادة خفية بين الجدران القديمة الرمادية ، ومضت تعتصم بقلوب السكان • ان الناس فى دار سبيطار لم يدركوا حقيقتها فورا • ولكنه الربيع • كانت أول الامر شيئا يسيرا ، ثم تعاظمت حتى لكأنها مقدار رائع من الخبز •

وجاء شهر آب ببياضه الخانق فحل محل أضواء الربيع • ان عمر الآن فى أجازة الصيف : ثلاثة أشهر لا يقرب فيها المدرسة •

تشبه دار سبيطار أن تكون بلدة . رحابها الواسعة جدا تجعل من المتعذر على المرء ان يقول ما عدد السـكان الذين تؤويهم على وجه الدقة . حين شق قلب المدينة ، واقيمت شوارع حديثة ، حجبت العمارات الجديدة وراءها تلك المبانى القديمة المبعثرة التى بلغت من تراصها انها تؤلف قلبـا واحدا : المدينة القديمة . وذار سـبيطار الواقعة بين طرق ضيقة صغيرة متلوية كأغصان النبات المتعرش ، كانت لا تبدو للناظر الا قطعة من ذلك القلب الواحد .

انها بيت كبير عتيق ، موقوف على سكان همهم الاكبر اختصار النفقات • واجهة ليس فيها شىء من تناسق ، تطل على الشـارع الضيق الصـغير ، وبعد الواجهة رواق المدخل وهو رواق عريض مظلم ، أخفض من الشارع ، وهو ينعطف حتى يحجب النساء عن أبصار المـارة . ويتصل الرواق بفناء على الطراز القديم فى وسط بركة ماء . وفى الداخل تزيينات كبيرة على الجدران : قيشانى أزرق ذو ارضية بيضاء ، وعلى صف من أعمدة من الحجر الاسود تقوم فى جهة من الفناء دهاليز الدور الاول .

كانت عينى وأولادها يسكنون بعضهم فوق بعض ، كسائر الناس

هنا . ان دار سبيطار ملأى كخلية نحل . وقد انتقلت الاسرة من بيت الى بيت عدة مرات . وكانت فى كل مرة تقع على مسكن كهذا المسكن ذى حجرة واحدة

كانت الخالة حسنة تزورهم فى صباح كل يوم من أيام الخميس . وفى الوقت نفسه كانت توافيهم منصورية التى يطلقون عليها جميعا اسم بنت العم الصغيرة .

ان منصورية تفاجىء الجميع هكذا ، هؤلاء وأولئك ، فيجلسونها ، وتأكل ما تجد من طعام .

أما الجدة ، فان الاشهر الثلاثة التى يجب أن تقضيها عند عينى قد انقضت منذ زمان طويل . ولكنها قد تركت لعينى منذ ذلك الحين . فقد رفضت بنتاها استردادها . قالوا حين جاءت لحظة اخذها انه ليس من الحكمة فى شىء تنقل العجوز المسكينة من بيت الى بيت دائما . فانها قد ضعفت ، ولن تعيش طويلا ، وابسط وسيلة هى أن يعيلوها وهى عند عينى ، ما دامت موجودة عندها الان ، اذا هم أرادوا ان يرحموها . سيجيئونها بطعامها ، وسيعنون بها ، وسينظفونها . قالوا لعينى :

— لن ينقصها شىء ، سترين . لسوف تكون كأنها عندنا . لن تزعجك ، ولن يكون عليك أن تنفقى من أجلها شيئا .

هذا ما قالوه . ولكن منذ اليوم الذى استقرت فيه الجدة عند عينى ، انضمت الى الافواه الثلاثة التى كان على عينى أن تطعمها .

ومن حين الى حين كانت تأتى هذه البنت او تلك من بنتيها الاخريين فتظل تبكى ثلاثة أرباع الوقت ، وتظل تندب هذه الحياة الحزينة ، ثم تمضى الى شأنها دون أن تفعل شيئا . وكانت عينى تقرص أختيها بكلام يمزق القلب ، وتعيرهما على مسمع من جميع النساء ، فما تعرفان كيف تسكتانها ، وترتعشان وتحاولان أن تهدئاها :

— اسكتى يا عينى ، اسكتى يا عينى . الجارات يسمعن كل شىء .

— أنا انما أقول هذا الكلام ليسمعنه .

وتصرخ فى مزيد من القوة .

ولم يكن هذا ليصلح الحال كثيرا ، ولا شك ان عينى كانت تفهم ذلك ، ولكن المشاجرة على هذه الصورة كانت تسرى عنها قليلا . وبعد فترة من الوقت أصبحت أختاها لا تزورانها ، أما الاخ فأمره

أيسر : انه لم يضع قدميه فى بيتها مرة واحدة ·

وكان عمر لا يزال يذهب الى المدرسة « الفرنسية العربية » ، ولكنه كان يتخلف باطراد ، فكانت عصا المعلم تهوى على راحتيه ، ومأبضيه ، وظهره ، فتلذعه لذعا .

فى ذلك النهار ، فاجأه الفجر نصف نائم : كان الضياء الطرى الجديد يتسلل الى البيت الكبير . ان الفناء والحجرات والسلالم والاورقة تشكل مجموعة غريبة معقدة تزخر بالضجة متى طلع الضياء . ها هو ذا أحد الابواب فى الطابق الاعلى ينفتح . ثم يسود الصمت .. وتنقضى دقيقة .. دقيقتان .. ويظل الصمت مخيما الى أن يهتز على حين فجأة باب المدخل الذى يستند الى اطار من الخشب غير محكم التثبيت فى الجدار . زقزق الباب فى أول الامر ، ثم انفتح اخيرا . وبلغت قوة رده انه قرقع قرقعة هزت أعماق البيت :

لقد خرج مولاى على أول الخارجين . ان مولاى على عامل من عمال شد « الفرامل » فى قطارات البضائع على خط تلمسان ـ عوجا. وبعد أن خرج أخذت خطوات متفرقة كثيرة تقرع بلاط الفناء . وانطفأت أصوات · كان الباب الخارجى لا ينفك ينفتح ويغلق منذ تلك اللحظة . كثيرون تركوا المنزل الواسع . ذهبت يمينة بنت سنوسى الى سوق الغزل تبيع رطلى الصوف اللذين غزلتهما فى الليلة البارحة . وخرجت من البيت أيضا ابنتها عمارية ، وصالحة بنت نجار . انهما تعملان فى مصنعين من مصانع السجاد . ومضى خمسة صبيان أو ستة الى مغازل بيبنيير .

لقد انشق نوم دار سبيطار بضربات فأس ، واستقر النهار فقيرا فى جسوم السكان . كانت النساء تود لو تظل راقدة .. بسيقانها التى يرثى لحالها ..

وانطلقت أصوات النساء وصيحات الاطفال من كل مكان · وبدأت الاحاديث وضجات نضح الماء ، واللعنات الاولى ..

تمنى عمر لو يطول النوم . كان يريد أن ينام . وكان يظن انه نائم . ان الاركان المعتمة من الغرفة ، التى لا يزال يتلفف فيها الظلام ، تتحرك فى رفق . الاجسام تترك النوم وهى تئن ، ومنها تفوح رائحة قديمة ، رائحة دخان ثقيل حاد . لقد تقدم الضحى ، فما يمكن أن يستمر المرء فى النوم مطمئنا . ان النهار يقف بالمرصاد على كل باب .

فوجيء عمر بسماع صوت أمه فى الغرفة . لا شك انها تتحدث مع جارة لها ، بصوت خافت .

كانت تتحدث بلا توقف . وكان يبدو ان هذه الدمدمة الرتيبة لن تنتهى . ان فى نبراتها كثيرا من الجد . ان الكلمات التى تنطق بها عينى تبدو آتية من مكان بعيد جدا ، من زمان آخر . ليس لالفاظ هذا الحديث كبير شأن . فما هى الا ذلك النوع من الشكوى العتيدة التى يمكن أن يحسبها المرء دعاء يتلى .. والتى أصبحت تحاصر عمر ولا تكف عن ملاحقته وعن تعذيبه أثناء الوسن الذى يستسلم له .

وسكتت عينى ، وتكدس فى الغرفة صمت لا تصدع فيه . لم يستطع عمر ان يستأنف نومه . وظلت عيناه مبحلقتين فى الظلام .

وجاءت من الفناء شمس خفيفة تزاحم الظلام . وتماوجت رائحة قهوة فى الهواء الطرى ، هواء الصباح . ان المرأة جالسة هنالك فى قاع الغرفة .. أهذا وهم ؟ كان عمر يظن أنها ذهبت .أكان يحلم ؟ ان عينى تتحدث بلا توقف . ونهض الصبى وهو لا يزال طائش اللب من النوم . فرأى الشكلين الغامضين الغارقين فى عتمة الغرفة بينما النهار يسطع فى الخارج .

كانت عينى تشد المنديل الذى يغطى رأسها . ان الحنة تصبغ شعرها الذى كان يجب أن يبدو أشهب . وأمامها يلتمع طبق من نحاس أصفر عليه بضعة فناجين من مطلى الخزف . ومن جهة عمر ، تبعثرت أغطية ملقاة ، وقطعة كبيرة من قطن أشهب ، وجلود خراف . إنها لاتزال تحمل طابع الاجسام التى كانت نائمة عليها .

وبعد لحظة من انقطاع سببته حركة الطفل ، عادت المرأتان تتحدثان كلتاهما . فهم عمر أن الحديث يدور على مسألة زواج ابنة عمه . ومالت زينة على عينى فقالت لها كلاما اضطربت له . وصمتت المرأتان ان عمر لا يفهم شيئا . وابتعدتا برأسيهما قليلا عن الجهة التى هو فيها

صاحت عينى فجأة :

— لن يهدأ بالى الا حين أعلم .

— سأقول لك كل شيء .

انهما تتحدثان عن ابنة عمه .. ثبت له ذلك شيئا فشيئا .

واستأنفت المرأة تقول :

— يظنون أن أحدا لم ير شيئا . لقد رأوها . وأراد مراد أن يقتلها

فجرحها . كلبة .. كلبة ..

والتفتت زينة لتبصق : تفو .. فسألتها عينى :

ـ أأنت على يقين ؟ لقد سمعت بالامر . ولكنى لم أشأ أن أصدق شيئا . يجب على المرأة أن لا تفتح عينيها الا لتنظر الى رجل واحد هو زوجها . ينبغى أن نقيم جدارا منيعا بين الفتاة وبين العالم .

كان يبدو على عينى حزن صادق من هذا الذى يقال لها . وكانت ترى أن عليها أن لا تظهر حزنها أمام الجارة . وراح عمر ينظر الى المرأتين الجالستين ، وظل يراقبهما على غير قصد . كان يدرك أن مرضا قد ألم بابنة عمه ، بجسمها أو بروحها ، وان عليها أن تكفر عن سوائها بأى ثمن .

نهض عمر ، ومضى نحو عتبة الباب ، فتلقفته أمه ، وسألته :

ـ الى أين ؟

فأجابها :

ـ الى المرحاض ..

وعادت عينى تتهامس مع المرأة فى كثير من الاهتمام . ان هذه المرأة الثانية هى الارملة التى تجاور غرفتهم .

هبط عمر الى الفناء .

ان المراحيض تقع فى المطبخ المشترك . وسرعان ماوقفت على باب المرحاض احدى النساء تنتظر أن يخرج عمر . هذا مكان لاتهدأ فيه الحركة أبدا . ثقب واحد لجميع الناس . أمر لايصدق . أخذ عمر يفكر طاردا من ذهنه صورة المرأة التى تحرس الباب منقبضة الوجه . وحين خرج اصطدم بها . فصاحت تقول :

ـ أيجب أن ينتظرك الناس نصف يوم بكامله ؟

ـ روحى اعمليها فى الشارع اذا كنت لا تحبين أن تنتظرى !

وفى تلك اللحظة وصلت عيوشة الى المطبخ ، فهتفت تؤنبه قائلة :

ـ عمر .. عمر ..

ودمدمت المرأة :

ـ رأس يهودى .

ودخلت المرحاض وهى تشمر تنورتها .

وأضافت أخته تقول :

ــ ما بالمرء حاجة الى أن يراك حتى يعرف انك هنا .

وترددت فى الهواء قرقعة أطباق تتصادم . ان الصحون تغسل فى هذه الساعة من النهار . وكانت خدوج تنظف البيت ، وتسكب قواديس الماء على أرض الفناء وعلى الجدران الى مستوى الركبة ثم تأخذ تحك الارض بالمقشة فى همة لاتكل .

وبينما كان عمر يجتاز الرواق ليعود الى الغرفة ، خيل اليه احدا يقوم ببعض الاشارات وراء ظهره ، التفت فاذا هو يرى زهور كانت زهور تحك ذراعيها العاريتين فى أعماق غرفة أهلها . ان أمها هى زينة ، المرأة القصيرة التى تركها منهمكة فى الحديث مع عينى كانت الفتاة تبدو حائرة مرتبكة مضطربة أشد الاضطراب . فقرر عمر ان يبتعد . ترى أهى على أهبة الخروج ؟ وهمت زهور أن تقول له شيئا ، ولكنه فى هذه اللحظة اتجه فجأة الى غرفته ، فلما التفت الى الوراء مرة أخرى لينظر اليها ، غردت تقول بصوت ضعيف :

ــ عمر ، تعال ، أرجوك .

وكررت نداءها ثلاث مرات . فمضى اليها فى آخر مرة . اقترب منه . انه يحس بدفء جسمها ينفذ فيه وقد وقفت أمامه . وفجأة ضربته بركبتها ضربة قوية على حالبه . فاذا هو يصرخ صرخة صغيرة ويرتمى على الارض ناشجا منتحبا .

مالت عليه زهور وكممت فمه بيدها . ان عليه ألا يتحرك حتى لا يختنق . سكن عمر . وهاهى ذى يد الفتاة تنزلق على جسمه سهولة ويسر . وأحس بجسدها يستلقى الى جانبه بصوت كأنه خشخشة الحرير . حبست زهور انفاسها ، وسكنت كما لا يسكن المرء الا حين ينام . ان رائحة سكرية دافئة تخرج منها : رائحة ثمرة ناضجة لم تمسسها بعد يد . وحاولت عدة مرات أن تدغدغ الصبى ولكن جهودها ظلت دون جدوى : انها لم تستطع أن تغلب التردد الذى كان يشل حركاتها . وبعد لحظة انهضت رأسها واستندت الى كوعها فلما مالت قليلا على عمر لاحظت أنه كان يحدق اليها . كان الصبى يحس احساسا خفيا بأنه مشدود الى هذا الجسد ، جسد المرأة وقد استسلم . ان عذوبة هائلة تتجمع فيه ، ثم تستحيل أخيرا الى احساس بالغربة . وشعر عمر فجأة بطمأنينة لا عهد له بمثلها من قبل

طمأنينة احس أنها مألوفة له غير جديدة عليه . ولكنها طمأنينة عجيبة ، فان عمر ما لبث ان أحس بضيق ، ثم سرعان ما صار الضيق الى قلق وخوف .

ــ لا ، لا ، لا تبك . انا لم أشأ أن أزعجك . أنت أخى .

قالت زهور ذلك وانقلبت عليه من جديد . وأصبح صوتها أعمق غورا وأشد بححا . أخذت زهور تدلله ، كأن ذلك واجب يقع على عاتقها ، وكأن عمر طفل صغير . ان الفاظا خطيرة تخرج من فمها ، فتلف عمر وتغمره ، ولكن عمر لايفهم معناها .

ــ كفى ، كفى ، لا تبك . لم أتعمد ذلك تعمدا ، أنت أخى .

وأخذت تهدهده . كانت كأنها تفكر فى شىء آخر ، كأنها ماضية بخيالها الى أمكنة أخرى . ان ألما بعيدا يعود فيستيقظ فى نفسها . من ذا الذى جعلها حزينة هذا الحزن كله ؟

ــ وهذه قبلة ياعمر . لن تبكى ، اليس كذلك ؟ لن تحزن ، هه ؟

قالت له ذلك ، واستندت اليه ، فانسحق ثدياها على كتفه . أحس عمر برائحتها . أعجبته هذه الرائحة ، رغم أنها ولدت فيه ميلا غامضا الى التقيؤ صعد الى حلقه ، وقلب قلبه . غير أن ماسره اكثر من أى شىء آخر هو انه ادخل يده فى تقويرة غلالة الفتاة ، فلمس كثة الشعر الاسود الاجعد الذى تحت الابط . ضحكت زهور . لم أخرجت يده وماكان أشد دهشتها حين قبلها الصبى بدوره ، فاذا وجهها يتجهم ، ثم اذا هى تدفعه عنها ببطء ، ولكن بقوة ، وتنهض واقفة .

ــ لا تظل راقدا هنا يا أخى الصغير . وعلى أن أسارع فارفع الفراش لقد انقضى أكثر من نصف النهار .

ان الفراش الذى كان عمر مستلقيا عليه ، ممدود فى وسط الغرفة . ونهض عمر ، وهم بأن يمضى ، ولكن الفتاة أمسكت به ، وقالت له :

ــ انا ذاهبة الى بنى بوبلان . سيأتى صهرى قره على ليأخذنى الى هناك . لقد تحدث فى هذا الى أمى ، فأختى مرهقة بالعمل ، ويجب أن أساعدها ، فاذا شئت جئت معى ، كالمرة الماضية .. اسأل أمك هل تسمح لك أن تجىء معى .

ــ كم يوما تبقين فى بنى بوبلان ؟

ــ أربعة أيام .. اظن ..

- ١١ -

أصبح عمر يخلو الى زهور فى أحيان كثيرة ، وكان فى كل مرة يكتشف ذلك العالم من الحب الذى يثير فى نفسه القلق . كان لايتحدث فى هذا الامر الى أحد . ولاشك أنه أمر خارق فى دار سبيطار . ومن أجل ذلك اتخذت هذه العاطفة عند الفتى طابع السر والتخفى . وكان الحب الذى يشد عمر الى زهور ينبت كما تنبت زهرة على صخرة متوحشة .

أخذت بكرة البئر تتحرك فى المطبخ تحت . وأخذ القادوس ينزلق . هاهو ذا القادوس يرتطم بالماء . وهاهو ذا صوت الماء يتموج حين يرتفع القادوس . ان ضجة مضطربة تملأ البيت . ولقد صنعت عينى قليلا من القهوة هذا الصباح . أما عمر فكان نصيبه قطعة من الخبز . ان عينى لاتشترى القهوة الا لنفسها حين يتوافر لها شيء من مال . وعيوشة ومريم تتحدثان بصوت عال متدفق مع غيرهما من الفتيات تحت . ولكنهما صعدتا الى الغرفة فوزا ، واستأنفتا عملهما ، حين سمعتا أمهما تناديهما صارخة . ان صوت عينى يأخذ فى الانتفاخ حادا متوعدا مهددا ، متى نادت ثلاث أو أربع مرات فلم يلب نداءها أحد

ان الرجال يخرجون بكرة ، فما يرون فى البيت الا نادرا ، ولايبقى فى المنزل الا النساء . ان الفناء الذى تغطيه أغصان الدالية المتشابكة يغص بهن . انهن يملأنه بذهابهن وايابهن ويزحمن المدخل . أما فى المطبخ فانهن لاينقطعن عن الثرثرة حول البئر الى غير نهاية . واذا كانت كل غرفة من الغرف تؤوى ضوضاء الاطفال طوال الليل ، فانها تعيد هؤلاء الاطفال سيرتهم الاولى متى طلع النهار ، سيلا من الفوضى لا يوصف سواء فى أعلى او فى أسفل . انهم يتعاقبون واحدا وراء واحد كأنهم القرود وقد التمعت وجوههم بالمخاط . والذين لا يقدرون منهم على المشى بعد ، يزحفون على الارض وقد ارتفعت اليتهم فى الهواء . انهم جميعا يبكون أو يزعقون . فلا الامهات ولا غيرهن من النساء يرين ان من المفيد ان يلتفتن الى هذا كله . أن الصراخ الذى يفجره الجوع أو تفجره العصبية لا ينقطع سيله ، وفى وسط هذا الصراخ ترتفع فى بعض الاحيان صيحات حزن ويأس . وكان كل هؤلاء الاطفال يهربون الى الشارع .

- ١٢ -

حين دخل عمر مسرعا ، كانت عينى تشد كوعها الى جسمها ناهضة لاستقبال العمة حسنة . وتعانقت المرأتان : وراحت عينى ترحب بالزائرة وتدعو لها بدوام الصحة قبل أن ينتهى العناق . وراحت تطبع على خديها قبلات يصعب على المرء أن يحصى عددها ، ثم أخذت تتساقط من فمها الاسئلة المعادة المكرورة : « كيف حالك ؟ » ، «كيف حال فلان » ، « كيف حال فلانة ؟ » ، « كيف حال .. » ، وكانت الاجوبة المهيأة تنهمر فى الوقت نفسه : « الحمد لله .. الله يحفظك .. »

كانت العمة حسنة تتنفس فى عناء من صعود السلم ، فلم تحاول أن ترد تمنيات عينى بمثلها . ان العمة حسنة تطفح من كل جهة . وكان وجهها السمين الثقيل يلتمع بقطرات العرق الثقيلة تسيل من تحت عصابتها المقرفة ومناديلها الخضراء وشالتها الوردية . وكانت غضون وجهها تشكل مسارب لعرقها حتى منتهى العنق . وكانت عيناها تطرفان فى ألم : ان دموعا كثيفة تنحدر من جفنيها المقرحين . وقد هرعت عينى الى استقبالها مسرعة ، لا تدخر وسعا فى التحرك والاضطراب حولها . أما لالا (كذلك كان يسميها الجميع ، حتى عينى) فكانت لا تزيد على أن تتنفس فى عناء . ولعل عينى لم تبذل من الحركة والاضطراب مع ذلك كل ماكانت تقتضيه آداب اللياقة .

– تعالى ، لماذا لا تدخلين ؟ اجلسى هنا .

وألقت عينى نظرات حولها ، ثم تناولت جلدين من جلود الخراف كانت مطوية نصفين ، ومنضدة فى ركن من أركان الغرفة .

قالت لالا آمرة :

– هاتى . ولكننى ماجئت هنا لاعسكر شهورا . لقد أتعبنى الصعود كثيرا . أف .. لم يبق لى من القوة مايمكننى من الوصول الى هنا ، يا أختى . دعى ، دعى . يريحنى القعود هنا عند الباب . لا أدرى

كيف تستطيعون أن تعيشوا .. أف .. أف ..

ثم أضافت وهى تهم بأن تجلس على الارض :

ــ اذن فقد عدلت عن الذهاب الى المقبرة عدولا تاما ؟

ــ ماعساى صانعة هناك يا لالا ؟ ان أعمالى كثيرة . ان الرجل الذى يمكن أن أزور قبره لم يترك لى لا مزارع ولا بيوتا فأبكيه . من مات ارتاح .

ــ كلامك حق . بقاؤك فى بيتك أولى . ان النساء لا تلتقى فى المقبرة الا لتحرك ألسنتها . ليس يجديك أن تضيعى وقتك مع هذه النسوة الحمقاوات المهذارات . ان لك أولادا ، فاعتنى بهم . لقد مات زوجك وكان الموت غطاء ذهبيا له . ففيم ينفعك أن تذهبى الى قبره تتأملينه هل تعرفين ماذا تقص النساء فى هذه الايام ؟ اننى لأتساءل من أين تأتى هذه الشيطانات بهذه الانباء : ان رجالا كثيرين سيعتقلون .

ــ ياه ! ..

وجلست لالا متلففةبحايكها الواسع المصنوعمن صوف أبيض ، وأخرجت من الدكة التى تحزم خصرها منديلا جففت به وجهها . وأخذت تتروح بالمروحة وهى لا تستطيع أن تنطق بكلام آخر .

حتى اذا استردت أنفاسها ، جعلت تكرر :

ــ لا اله الا الله .

ان رائحة ناعمة كرائحة الحمام تخرج من جسمها عرقا وتجتاح الحجرة .

وأخرجت العمة حسنة من ثنايا حجابها لفة صغيرة قدمتها الى عينى

ــ وهن يقلن ان عددا من الرجال قد اعتقل منذ الان ، فى كل مدينة من المدن . ان هؤلاء الرجال يعملون فى السياسة ويقلقون الاذهان ، فمتى وضعوا حيث يجب أن يوضعوا هدأ بال الناس واستراحوا .

ــ هوه .. لالا ..

ــ هه !.. يريدون أن يتحدوا الفرنسيين . هل عندهم أسلحة ؟ وهل فى رءوسهم علم ؟ على رسلك ! انهم لايملكون الا جنونهم وفقرهم ليبقوا ساكتين ، ذلك أجدى لهم . فهل يقدرون على أن يقاتلوا الفرنسيين ؟

ــ لا نعرف .
ــ أما أنا فأعرف • هؤلاء أناس حمقى أغبياء • ان مايريدونه هو أن يحلوا محل الفرنسيين . فهل يعرفون كيف يحكمون ؟
قالت العمة حسنة ذلك ، ثم نفخت نفخة احتقار :
ــ أف ، أف ..
قالت عيني :
ــ حميد.. جاءت الشرطة تفتش عنه مرة أخرى .. منذ ثلاثة أيام
فانفجرت العمة حسنة تقول بصوت كأنه صوت مدفع :
ــ لانه يعمل فى السياسة ..
واهتز جميع مافى وجهها من لحم وهى تطلق من فمها هذه العبارة . ثم أضافت زافرة :
ــ أولى به أن يبحث عن عمل ، وأن يبنى أسرة ، ذلك خير له من أن يضيع وقته فى الدعوة الى ترهات ستفضى به الى السجن .. ألا تعتقدين بأن هذا أفضل ؟
ــ ليتك رأيت يالالا حين دخلت علينا الشرطة فجأة أول مرة ... لقد بدأنا نعتاد هذا الامر الان ..
ــ لماذا ، يا أختى ، يسىء الى نفسه والى غيره على هذا النحو ؟ اننى لا أفهم • ليس هناك الا السجن مكانا يؤوى رجلا مثله !
ــ لالا ، ماذا تقولين ؟ •• أف •• ما عسى ان يصير اليه حال اخته المسكينة اذا هم سجنوه حقا ؟
قالت العمة تبدل مجرى الحديث :
ــ أين البنات ؟
تحت .
أولى بهن ان يساعدنك قليلا، ذلك خير لهن من الهذر مع هؤلاء النسوة اللاتى لا عقول لهن •
ــ عمر يساعدنى قليلا ، وهن يغسلن بعض الملابس .
كان عمر متربعا عند قاعدة ماكينة الخياطة فعلا ، يشذب بالمقص حوافى القماش التى رمتها اليه أمه بعد ان ضفرتها •
ــ وهذا ، أهو ماض فى اتقان المهنة ؟ لن يتحسن الحال اذا لم يجئك بعشرة ملاليم • ما هذا الصبى الا أنثى ، بل ان الانثى لخير

منه • انه يظل مدسوسا فى البيت طوال الوقت • مسكينة انت ياعينى .. انك ضحية هؤلاء الاولاد الذين يمتصون دماءك بلا رحمة . انك لن تصلى بمعونتهم الى شىء البتة .

قال عمر دون أى اهتمام بما قالته عمته :

ـ أنا أذهب الى المدرسة وأتعلم أشياء كثيرة .. اننى أريد أن أتعلم، حتى اذا كبرت ربحت مالا وفيرا .

قالت لالا مؤنبة :

ـ دعك من هذه الافكار . ان عليك أن تعمل كالحمار اذا أردت ان تعيش فحسب . وهل الذين لم يذهبوا الى المدرسة فى يوم من الايام يموتون جوعا ؟ التعليم ليس لامثالك يا دودة •• ما الذى تظنه فى نفسك حتى تطمح الى التعليم ؟ قملة تريد أن ترتقى فوق مستواها .. اخرس يا ابن السكير . ما أنت الا غبار ، الا قذارة تلتصق بنعال كرام الناس . وأبوك ، هل ذهب الى المدرسة يوما ؟ وجدك ،وأجداد جدك ؟ وأسرتك كلها ؟ وجميع من نعرفهم من الناس ؟ اما أن تصبح رجلا واما أن تسحق سحقا . عليك ان تحتمل قسوة الاخرين ، وان تستعد لرد القسوة بالقسوة . لا تأمل فى ان تصبح سعيدا . من أنت ، من أنت حتى تحلم بالسعادة ؟ لا تأمل ان تعيش حياة مطمئنة، لا تأمل .

كانت عيناها الضاربتان الى زرقة تضطربان فى وقبيهما كسائل كثيف عكر • وكانت الزاوية القاسية من فكها المنثنى على مرارة تضفى على وجهها كله ضربا من العنف والشدة .

وقالت له أمه تنصحه بلهجة الامتثال للعمة حسنة :

ـ اعتبر بما يقال لك .

- ١٣ -

كانت لالا تقبض بيدها العجراء على سبحة ذات حبات سود مصقولة، لا تتركها فى لحظة من اللحظات . انها تظل تزلق هذه الكرات بين أصابعها من الصباح الى المساء بحركة آلية .

واستولى عليها نعاس مفاجىء . ان شفتيها تتحركان وحدهما . وأصبح المرء لا يدرك الا وسوسة حبات السبحة يتساقط بعضها على بعض واحدة بعد الاخرى .

قالت وهى تستيقظ فجأة :

ـ ستذهبين اذن الى هناك ؟

فأشارت عينى برأسها أن نعم .

ـ ستأتين بقطع ؟؟ ولكن هل تعرفين ماالذى تعرضين له نفسك؟ ان جميع النساء اللاتى يمررن بالجمارك يعرين،ويفتشن ،لمعرفةمايحملن. فهل تريدين ان تقع لك قصة سيئة وأن يعلم بها جميع الناس ؟.. ما عساك صانعة اذا حكم عليك بفرامة وصودرت الاقمشة التى تحملينها ؟ أنا لا شأن لى بالموضوع على كل حال .

كانت عينى تأمل أن تصل الى « عوجة » دون أن يعوقها عائق .وقد طلبت الى أولادها أن لا يتحدثوا بهذا الامر الى أحد . فما كان ينبغى أن يعرف سكان البيت لماذا هى ذاهبة الى « عوجة » . انها لا تشعر بأى خجل من القيام بالتهريب . وانما الخوف من العين الحسود . ان من تلاحقه العين الحاسدة لا يجنى غير المصائب .

قالت لالا تنصحها :

ـ أطيعينى . يجب على المرء أن يبقى ساكن البال هادئا . هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك .

ان امرأتين من الجيران قد نقدتا عينى بعض المال ، لتشترى لهما أقمشة تصنع بها كل منهما أربعة فساتين . وراحت عينى تحسب أمام

لالا الربح الذى ستجنيه من هذا الامر . ان عينى لاتعرف الحساب ولكن ابنها عمر كان قد أجرى لها كل العمليات الحسابية ، فكانت تكررها أمام لالا ، وكانت لالا تصغى اليها مذهولة ، وقد ظهر في وجهها الاهتمام والجد . ان الارقام التى تذكرها عينى قد فتنت العمة حسنة . وقد أصبحت عينى خبيرة فى التعامل مع هذه الارقام ، من فرط ما اجترتها منذ بضعة ايام الى الآن ..

قالت لالا أخيرا :

– اذن فاذهبى ، ولكن لاتنبسى بحرف هنا . لا تطلعى على هذا الامر أحدا . وأسأل الله أن يعينك وأن يحميك ، فانك تعيلين أطفالا يتامى .

فوعدتها عينى بالتزام نصيحتها :

– سأذهب هذه المرة ، ثم لا أكررها أبدا . ذلك أننى قد ارتبطت بوعد قطعته لهاتين المرأتين .

قالت ذلك ثم أخذت تشكو مر الشكوى من الحظ الذى ألقى على عاتقها عبء ثلاثة أطفال . متى يكبر عمر ، ابنها ، فيحمل عنها بعض هذا العبء ؟ البنت لايمكن الاعتماد عليها ، وانما يجب اطعامها . حتى اذا شبت عن الطوق أصبح واجبا أن تراقب مراقبة دقيقة ، فهى فى سن البلوغ أسوأ من حية . فما أن تغفلى عنها قليلا حتى ترتكب الحماقات . ثم لابد لك أن تفصدى عروقك حتى تهيئى لها جهازا قبل أن تتخلصى منها .

هكذا رددت عينى تلك النغمة ، كما رددتها قبل ذلك عشر مرات ، مائة مرة ، ألف مرة . وكانت بنتاها تعملان مع ذلك ، وتساعدان فى اعالة الاسرة . ولكن الام لاتكف عن شكاواها المعادة المكررة .

قالت لالا :

– حين تعودين ستذكرين لى كيف استطعت أن تجتازى الجمرك . ان عندى بعض المال .. أوه .. مقدار قليل طبعا .. بضعة قروش . أعطيك اياها لتشترى لنا عددا من قطع القماش .

– نعم يالالا ، وسترين مقدار الربح الذى سنجنيه .

هذا ما كان . ان لالاتبدأ باستنكار عمل من الاعمال فى حماسة قاطعة جازمة ، وما هى الا لحظات ، حتى تنسى كل شىء . ان عمر

يجد أن ذلك أمر غير معقول : أن يكذب المرء نفسه دائما ، وأن يعيش فى تناقض متصل . لقد كان عمر يلاحظ هذا التذبذب فيمن حوله من الناس طوال النهار . وكان على ثقة أن أمه التى أمرتهم مهددة متوعدة بأن لا يفضوا الى أحد بشيء من أمر رحلتها المرتقبة ، ستكون أول من يمضى يقص أدق تفاصيل هذا الذى تنويه على كل من يحب أن يسمع . والعمة حسنة من جهتها ، لن تتأخر عن البوح به الى كل من تعرف .

قالت لا لا ، وهى تفكر الان فى شيء آخر :

ــ لقد بدأت بالاستعداد للعرس .

لقد خطبت بنتها الصغرى منذ سنة تقريبا ، وكانت الاستعدادات للزفاف موضوع تعليقات لا نهاية لها ، حتى أصبحت كلمة الزفاف لا تعنى الا « هذا الزفاف » كأنه لا يمكن أن يكون هناك زفاف آخر .

وأضافت لالا تقول :

ــ اننى أستعد الان للعرس . وأنت تعلمين ماهو دورك فيه .

فأمنت عينى على كلامها .

وأردفت لالا قائلة :

ــ لن يكون هناك زفاف أجمل منه . سيشده به الناس ، فيمضون ينشرون أنباءه فى المدينة كلها . لن ندخر وسعا . سيقوم هو (هكذا كانت تسمى زوجها ، كما تقضى بذلك آداب الكلام) بتضحيات كبيرة تليق بمكانتنا . اننا مضطرون الى هذا ياعينى ، ولابد لنا منه . أن لنا مركزا يا أختى ، ويجب أن نحافظ على هذا المركز . ماالعمل ؟

سأل عمر :

ــ فى أى يوم سيكون العرس ؟

فأجابته أمه :

ــ اخرس ، أنت .

وقالت حسنة لتغير مجرى الحديث ، لان الموضوع الذى كان يدور عليه الكلام موضوع خطير :

ــ أرجو أن تكون مواظبا على عملك وان تقوم به على أحسن وجه .

ان أحد أبناء العمة حسنة كان قد وضع عمر عند حلاق من الحلاقين ، فكان على عمر أن يذهب الى الحلاق كل يوم بعد الظهر

عند خروجه من المدرسة ، عسى أن يتعلم سر قص شعور الناس . ولكن عمر كان قد نسى أن يذهب الى الحلاق منذ بضعة أيام . وكانت العمة حسنة تجهل ذلك .

ـ كن جديرا بالثقة التى أوليناك . اننا لم نحصل لك على هذا العمل الا فى كثير من العناء . من حسن حظك أننا استطعنا أن ننتزع لك هذا العمل الذى سيكفل لك مستقبلا محترما عطرا . حلاق فى مركز المدينة . اليس هذا رائعا ؟ مستقبل عظيم ، ياطرح ؟ عليك أن تعترف لى بجميل كثير أنا التى ألححت ذلك الالحاح كله على عبدالكريم من أجل أن يجد لك هذا المكان . ماذا أنت لولاى ؟ كن جديرا باهتمامنا هذا بك . اعمل .

ـ أشكر لك يالالا أنك كفلت لى ذلك السبيل الى تحصيل الرزق ، وهو أن أبل ذقون الفلاحين ووجوههم . وقد برعت فى هذا الفن منذ اليوم الاول ، حتى دهش بعملى صاحب المحل ودهش به الفلاحون أنفسهم . غير أننى لم أحب هذا العمل فلم أعد الى الحلاق بعد ذلك اليوم أبدا .

فانعقد لسان العمة ولم تعرف ماذا تقول .

أما أمه فقد شعرت من سلوكه بالعار . انه لم يبرهن على جدارته بما أولى من ثقة .

قالت العمة حسنة :

ـ دعونا من هذا الموضوع ، ولنتكلم فيه بعد الان

ثم أضافت .

ـ وذلك التنبال حميد سراج ، هل صحيح ان السلطات ألقته فى السجن ؟

ـ لا ، يا لالا .

ـ سيظل اذن يحشو ادمغة الناس بالالفاظ كما كان يفعل ، فى كل ركن من أركان الشوارع . ان الذين يصغون اليه يضيعون أوقاتهم ، وينفخون رءوسهم هواء .

ـ اذا نحن فكرنا فى الامر لم نر فى ذلك شيئا غريبا . يا للمسكين .

ـ ماتغيرت أنت .

ـ لقد فهمنا أشياء كثيرة . واذا تحقق مايقوله ، كان هو السعادة

لجميع الفقراء .

ـ انك تصدقين مايقوله هؤلاء الشيوعيون .. وستظلين على هذه الحال الى آخر حياتك . ألا ترين مايؤول اليه ؟ انه السجن . ماذا يجنون من ذلك كله . السجن .

ـ لايسع المرء الا أن يتألم قلبه حين يرى هذه الامور .

وانزعجت لالا انزعاجا واضحا ، وعادت تتحدث فى الشئون التى تهمها :

ـ سيقول جميع الناس فى هذه السنة : ان هذا العرس قد فاق فى روعته وبهائه كل ماشوهد قبل ذلك من أعراس . خسارة أن تلك الحيوانة جنات ، أخت زوجى ، قد ماتت . لا شك انها كانت ستموت حين ترى العرس ، غير انها كانت ستموت من الحسد والغيرة ، لا من مرضها الذى قضى عليها . خسارة ..

أما دور عينى فى هذا الزواج فلن نقول عنه الا كلمتين قصيرتين ، الحق ان عينى كانت فى قرارة نفسها غير راضية عن هذه الاستعانة بها فى غير تحرج . كانت لالا قد قررت ان تعهد بطبخ الطعام الى طاهيتين ، ولكنها كانت تخشى التهريب ، فهى تريد من عينى أن تتولى عد شرائح اللحم ، وأن تراقب الخادمات المكلفات بالقلى وأن ترصد المتطفلات اللائى يدخلن المطبخ

قالت لالا :

ـ اذا لم ننتبه فسيختفى الطعام كله تحت ملابسهن

كانت عينى تعرف ذلك

كانت لالا ، رغم حبها للتوفير والاقتصاد فى كل شيء ، واحدة من الناس الذين يأكلون كل يوم . وكان شبعها فى كل يوم من الايام يضفى عليها مهابة ، ويحمل على احترامها . وكانت تساعد عينى وأطفالها على احتمال لحظات العوز ، فتمدهم بين الفينة والفينة بقطع من الخبز الاسود هى كسر يابسة متسخة فى بعض الاحيان ، ولكن الام تخضلها بالبخار وتحضرها فيصبح فى الامكان أن تؤكل ، محتفظة بروائح أنواع الطعام التى لمستها على مائدة العمة حسنة . وواضح أن مجىء العمة حسنة كان ينتظر بفارغ صبر . لقد كان عمر يذهب الى عمته من حين الى حين فى مواعيد مطردة (ولكنه يراعى أن يجعل زياراته متباعدة) ، فاذا وصل الى باب البيت ناداها قبل أن يدخل ، لانه يخاف التوغل فى هذا المنزل الذى يخيم عليه صمت عميق ، وكانت العمة تعرف صوته ، فتأمره من أعماق البيت بأن يدخل

حتى اذ مثل أمامها مرتبكا أشد الارتباك ، أخذت تمطره بوابل من الاسئلة :

— الى أين كنت ذاهبا ؟ لماذا جئت ؟ من أرسلك ؟ هل تريد شيئا

فكان يحاول أن يجيب دون أن يستطيع ابداء أسباب معقولة ، فيقول :

— جئت ، هكذا ، فقط ..

وكان يبلغ به الخوف حدا بعيدا ، فما يفهم أحد غيره ماذا قال وكان يدرك من طريقة لالا فى طرح أسئلتها انها لا تشجعه أبدا على الاجابة ، والجدال معها ليس بالامر السهل على كل حال ، ثم أن أسئلتها لا تقتضى فى حقيقة الامر أى رد ، وما هى الا لحظة حتى تنصرف عنه وتأخذ تدمدم أدعيتها . وهى تتوقف فى بعض الاحيان بين دعاءين لتستأنف وعظها وارشادها

وكان عمر يدمدم أخيرا بأطراف شفتيه قائلا :
ــ لا ، لا ، هل لك أن تعطينى قطعة من الخبز ؟

فتتوقف لالا عندئذ عن دمدمة أدعيتها توقفا تاما ، وتجعل تتفرس فيه ، وهذه هى اللحظة التى كان يخشاها الصبى أكثر ما يخشى

ثم تنهض من مجلسها وهى تستعين الاولياء والصالحين ، متشكية من آلام الروماتزم التى تصلب ظهرها ، وتمضى الى خزانة صغيرة ، فتستل منها قرصا كبيرا من الخبز ملففا بفوطة ندية ، ثم تتناول سكينا فتقطع قطعة من هذا الخبز الذى كان عمر يحتفظ فى فمه دائما بطعم رطوبته ورائحته العفنة قليلا . ما كان ألذه بمذاقه هذا ! ..

وكانت لا تلبث أن تأمر الصبى بأن يعود الى بيته

ــ اذهب ، لا تبق هنا ، ولا تتسكع فى الشوارع ، وحذار من العربات أيها الغبى !

فكان عمر يسيطر على فرحه ، ويمضى مسرعا ، وفى يده قطعة الخبز .

ان العمة حسنة تسكن فى الطرف الآخر من المدينة . وكانت اذا جاءت الى البيت ، مكثت فيه طوال فترة الصباح ، رغم أنها تحتج احتجاجا صارخا ، وتحلف منذ تدخل أنها لن تبقى أكثر من ربع ساعة ، أو دقيقة واحدة ، وذلك من قبيل مراعاة اللباقة . لقد كانت لالا تحاول أن تساعد عينى ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل كبير شىء ، وما من أحد كان يمكن أن يفعل أكثر منها لو كان فى محلها

ظل الحديث ممسكا بالعمة حسنة حتى ساعة الظهر . ان المرأة العجوز تنسى نفسها ، وهاهى ذى قبل أن تفكر فى النهوض والذهاب ، تسأل عينى عن حال منصورية ، ابنة عمها الصغيرة . فتطمئنها عينى فى غموض قائلة انها زارتها منذ مدة غير طويلة

ــ ولكنها لا تزال سوداء يالالا ، سوداء

ــ أعرفها ، مسكينة . يعتقد المرء حين يراها أنها لم تستحم منذ عشر سنين . هكذا هى . ارسليها الى اذا جاءتك مرة . لها عندى شىء .

ماذا ؟ أتخبىء لالا بعض الاشياء لابنة العم الصغيرة ولا تفكر فينا ؟ هل نحن أصبحنا أغنياء ، نحن ؟

قالت عيني ذلك لنفسها ، وانقرض قلبها ، واحست حقا أنها مظلومة .

ومع ذلك تريد مني أنا أن أعمل في حفلة الزفاف ، كأنني عبدة لها ، ان الناس يسمحون لأنفسهم بكل شيء في معاملتنا . ولم تشأ حسنة أن تذكر ما الذي تنوي أن تعطيه لابنة العم الصغيرة

فلما أرادت لالا أن تنهض ، كان نهوضها مشكلة من المشكلات . تقوست أول الامر مستندة بيديها على الارض ، ثم رفعت اليتيها الضخمتين بداية للنهوض . فأخذت عيني تستحلفها أن تبقى للغداء قائلة لها :

ـ تذهبين بعد الظهر حين تخف حرارة الجو . ان المرء ليحترق اذا خرج في مثل هذه الساعة

وجعلت عيني تتوسل اليها بجميع ما يقال من كلام في مثل هذا الظرف للامساك بضيف . ان العرف يقضي بذلك . مسكينة عيني . ماذا كان عندها من طعام تقدمه ؟

ومن تحت كتلة اللحم والاقمشة ، من تحت لالا ، خرج صوت نحيل يقول :

ـ لا أستطيع .. هف .. هف . لا .. لا .. ياعيني . والا زعلت كنائني .. يجب أن أذهب . واذا كان عندك طعام فاحتفظي به لكم . ما من داع الى أن أقاسمكم اياه .

ومع ذلك ظلت عيني تحاول أن تلبثها للغداء . وأخيرا استطاعت لالا أن تنهض على قدميها وأن تلملم أطراف حايكها عليها ، مرددة اسم الله مرات كثيرة أثناء ذلك

الاطفال يسكبون قواديس الماء على البلاط ، فما يكاد الماء ينتشر حتى يتبخر موجة حارة . لقد استحالت الغرفة الى فرن يقبعون فيه يائسين . انها قاسية ، هذه القوة العمياء التى تغرقهم ، فما يفرغون من مغالبتها

قالت عيوشة :

ـ يستحيل ترطيب الجو فى هذه الشمس المحرقة

لابد من مزيد من الماء

قالت عينى :

ـ لابد من الماء ، لابد من ماء كثير . نحن هنا فى جهنم بل أشد . انزلوا الى تحت وأتوا بما تستطيعون الاتيان به من ماء . هيا عجلوا ولا تبطئوا

وكانوا يترنحون كالسكارى

قال عمر :

ـ لا داعى الى هذا ، فالشمس لن تنقطع عن تسخين الجو مهما نصب من ماء

ان من الصعب على المرء أن يتنفس هذا الهواء

وقالت مريم متباكية :

ـ أأظل أذهب وأجىء طوال الوقت ، أحمل الماء واصبه على الارض؟ ان الدرج أسوأ من سلم .. وقدماى تنقليان من فرط سخونته ..

ولكن مريم ظلت تفعل ما كان يفعله الاخرون . كان عمر يأتى بالماء فى حلة ، وكانت عيوشة ومريم تحملانه فى صفائح . وكل شىء فى الطريق بين البئر التى ما ينفكون يديرون بكرتها بغير انقطاع وبين الغرفة غارق فى الماء . ان عمر يرفع اناءه على قدر ما تسعفه قواه ، فكلما صعد درجة وضع الاناء على الدرجة التى بعدها فاندلق منه بعض

الماء . ويصل عمر الى أعلى الدرج أخيرا رغم كل شيء ، ثم يغور من هناك فى الغرفة خافضا رأسه

وكانت عينى وحدها لاتتحرك . انها مسمرة أمام ماكينة الخياطة، وكانت الاشياء المطرزة تخرج من تحت ابرتها كأنها سبحات ، وكانت تحض أبناءها على حمل مزيد من الماء ، بصوتها ، دون أن ترفع بصرها عن عملها . ان جسمها يهتز على ايقاع الماكينة فلو رآها راء لقال انها حالمة . ولكن كان يكفى أن يقل الذهاب والاياب فى الغرفة بعض الشيء حتى تتوقف عن عملها ، وتلقى على أولادها نظرة فاذا هم يستأنفون عملهم ، فيسفحون المـــاء على الارض وعلى الجـدران العالية ، ثم يسفحونه . وتعود الماكينة الى الدوران ، ويعود كتفا الأم الى حركتهما الرتيبة . ان عينى تعمل منذ الآن وكأنها نائمة رغم دقة الحركات التى تقوم بها

حسب المرء أن يدخل مـــرة الى غرفتهم الحقيرة حتى يـــدرك ان الطراوة مستحيلة فيها . غير ان عينى كانت فى حاجة الى الطراوة حتى تستطيع أن تعمل . وانها لمعجزة أن أحدا من سكان هذه الغرفة لم يقتله الحر الى الآن

الهواء فى الخارج يهتز ويتساقط غبارا بلون الرماد . وكل شيء مغمور بجحيم من الضياء . الأطفال يصطدمون بجدران من هــذه الحرارة اليابسة ، حرارة شهر آب . والسماء تفور وتغلى وتتقيأ زوابع من الذباب الذى تجتذبه روائح القعور . ان هذه الايام تصب على الحى رائحة نتن رقيق مقيم ، رائحة جثة عفنة ، لا تطردها هبات الهواء ولا يطردها انخفاض الحرارة فى الليل

الصمت يدور ثم يدور كرحى طاحون . البيت الضخم أخرس لاينطق . السكان لايتزاحمون .انهم جميعا يغلقون أبوابهم ويعتصمون فى أعماق غرفهم فى هذه الساعة من النهار . وفى قاع هذه الغرف . حيث يلوح ان الناس حبسوا الظلمة ليعتصموا بها ، تترجع أنفاس عدد لا يحصى من البشر

أولاد عينى وحدهم واقفون غير جالسين . على أنهم رغم حماستهم يشعرون بنوع قاتم من الاعياء . وهمهمة آلة الخياطة تملأ جو الغرفة فى عناد . وضـــاق الاولاد ذرعا فى آخر الامر فجلســوا على الارض

ليتنفسوا قليلا . وأخذ عمر يراقب البلاط الذى يجف ، يراقبه فى دهشة كالحة . ان أسماله مبللة . ولكن لاضير . انه لا يريد الآن شيئا البتة ، وهذا الاحساس بالرطوبة على جلده يخفف عناءه . واستمرت الأخت الكبرى تذهب وتجيء كمكوك الحائك بين البئر والفرفة ، حاملة قواديسها بطرفى ذراعيها . ورأى عمر أخته مريم تضحك ضحكا شديدا حتى لتعجز عن النهوض ، فسرت اليه عدوى الضحك فأخذ يضحك

لاحظت عينى اللعب الذى يسترسلون فيه ، فشبكت ذراعيها ونظرت اليهم نظرة حولاء دون أن تترك ماكينتها ، وقالت وهى تهز رأسها هزا خفيفا بطيئا :

ــ ماء ، لا تتوقفوا ...

فكفوا عن ضحكهم فورا .

ونهضت . فكان لابد من الهروب منها .

قالوا لها :

ــ فى وسعك أن تركضى .

وتملصوا من بين أصابعها تملص الماء ، لقد كانوا يقلدون حركات وجهها المشوشة

ــ عمر ، حذار . سوف تندم . تعال الى هنا . خير لك أن تجيء .

وكانت تحدق اليه بعينين دون أن تتوقف عن الصراخ . أتراها تكف أخيرا عن هذا الزعيق ؟

ــ هذه أنا ياعمر ، هذه أنا نفسى ، هذه أنا

صاحت بهذا وهى تضع سبابتها تحت عينها اليمنى لتقول ان من العبث أن يرجو شيئا من رفقها به وعفوها عنه

ــ لن يضيرك الانتظار

ــ اننى ازعجك .

كان واضحا أن خير ما يمكن أن يفعله هو أن يفر . وها هو ذا فعلا يصير فى الشارع بوثبتين ، قبل أن تستطيع احدى اختيه ان تتشبث به لتدفعه الى أمه عنوة . وثب وترك أخته تصرخ ما شاء لها أن تصرخ

اما مريم فقد زحفت الى أمها مثل كلبة . ومن الشارع سمع عمر زعيقها .

صحيح ان عينى قد ولدتهم جميعا ، ما من احد ينكر ذلك ، ولكنها لم تستشرهم فى الامر ٠هل طلبت أنا شيئا ؟اننى لم أكن أجيد الكلام يومئذ ، والمهم على كل حال ان الامر قد تم فوجدت ، أفلا تدع لنا شيئا من الهدوء والسلام على أقل تقدير ؟ لا ، لن أسمح لاحد أن يدوس على قدمى ، ولو كان أمى التى أرضعتنى لبن ثدييها ٠ بهذا حدث عمر نفسه ، وقرر أن ينتظر خارج البيت

ليتك ترى عينى حين تمسك بواحد من أولادها ، ولو كان هو هذه العصا الطويلة ، عيوشة ٠ كانت عينى اذا قبضت على واحد من أولادها تسلخ جلده سلخا من شدة الضرب ، مقبلة على عملها هذا بهمة جبارة لا تلين ٠ كان من الأفضل أن لايخطر ببال احدى النساء فى مثل هذا الاحوال أن تتدخل وأن تصيح فى وجهها قائلة ان هذا ليس من العدل فى شىء ، وان تربية الاولاد لا تكون بهذه الطريقة ٠ فان عينى تزيد عندئذ عنفها ، اذا أمكن المزيد

– كيف ؟ ألا أستطيع أن أضربهم ؟ ليسوا أولادى ؟ ما هذا الذى تقولين ؟ لا أستطيع ؟ من ذا الذى يمكن أن يمنعنى من ضربهم ؟ أليسوا لى ؟

وكانت عينى أثناء انهماكها فى ضربأولادها تلتفت الى الجيران الذين وقفوا على مسافة منها ينظرون اليها :

– سأمص دمكم ، يجب أن يكون هذا ماثلا فى أذهانكم ٠ اننى أعرف كيف أربى أولادى ٠ اعرف كيف أنشئهم على الاحترام ٠ هل تظنون اننى واحدة من تلك النساء اللائى يدعن أولادهن بغير تهذيب ؟

قال عمر بينه وبين نفسه :

– لسوف تصفى هذه الامور كلها فى يوم من الايام ٠

وكان يلعب أمام البيت بانتظار أن تهدأ الزوبعة وان يزول الخطر: فاذا هو يسمع على حين غرة أصواتا كثيرة تنفجر فى داخل البيت دفعة واحدة

فدخل ليرى ما حدث ٠ فرأى النساء قد تجمعن فى الفناء ، وأخذن يجمجمن وهن يلوحن بأيديهن فىتشنج ٠ ان أكثرهن يتجهن بأبصارهن الى غرفة عينى ٠ وهذا بعض آخر يتناقش فى الامر ثم ينضم الى الحملة ٠ ان الصرخات لأشبه بطلقات رصاص تنفجر قوية مدوية ٠

لم يفهم عمر شيئا . لاشك ان هذه الاحتجاجات تنصب على أسرته

ـ لم يعد فى الامكان احتمالهم . انهم يسممون حياتنا

وأخذت احدى ساكنات الطابق الارضى تهاجم عينى لهذه الضجة التى تحدثها ماكينتها :

ـ ما هذا ؟ ان الصخب لا يدع لنا راحة . ان زوجى يظل طوال الليل مؤرقا لا يغمض له اجفن بسبب هذه الضجة . والمسكين فى حاجة الى النوم ليستطيع أن يعمل جاهدا فى الغد . انها لاتكل من الخياطة حتى منتصف الليل . أيتها المخلوقات ! البلية كلها من هذه الماكينة الجهنمية .

ـ بل البلية هى أولاد الحرام هؤلاء الذين يظلون ينجـرون مع قواديسهم طوال فترة القيلولة .

ـ وأمهم لا تحاول أن تهدئهم ، هذه المرأة السليطة

كانت الاصوات الحانقة تترجع قاسية ثم أصبحت آخـر الامر شكاوى حادة عنيفة

منذ مدة طويلة لم يسمع فى البيت صخب كهذا الصخب . كانت النار مختفية تحت الرماد منذ عدد من الايام . لم يكن ذلك يخفى على أحد . كان يحدث من حين الى حين أن يقع شىء من الاخـذ والرد . ولكن النساء لا يروى غليلهن هذا . فكانت أعصابهن تتوفز وكانت دماؤهن تغور الى أن طفح الكيل ، فانفجرت الصاعقة فى آخر القيلولة من هذا اليوم بعد الظهر . كان لابد لهم من هذا والا أصابهن جميعا جنون

كان بينهن من لم يقلن شيئا ، غير أنهن كن يخرجن من بين اسنانهن جميع أنواع الشتائم واللعنات . انه لابد من معاقبة نفاق هؤلاء. وهذا عمر يخرج لهن عضوه الصغير ، ويقوم بحركات بذيئة . فلما رأينه جعلن يصوتن نائحات نادبات وهن يشرن الى الشىء بأصابعهن

فشتمهن عمر ، ويصق أمامه

عندئذ قام فى دار سبيطار اضطراب هائل ما انفك يتسع

واجتذبت الوعوعات نساء أخريات من البيوت المجاورة . لقـد اعتادت هؤلاء النسوة أن يتجمعن متى حدث انفجار . انهن يتزاحمن الآن جماعة خرساء عند مدخل البيت . ومن فرط استعجالهن لم

يتسع وقت أكثرهن لوضع الحجاب ، فهذه ألقت على رأسها منشفة وهذه غطته بشالة ، وتلك لم تزد على أن شمرت حافة تنورتها من خلف وسحبتها على رأسها تغطيه . وتقدمن بلا تحرج حتى بلغن وسط الفناء . ان المرأة لا تقوى كثيرا على مقاومة البشائر الاولى التى تؤذن بوقوع مشاجرة . واللائى لم يستطعن أن يأتين من الشارع هرعن يطللن على البيت من السطوح . عناقيد من بشر تتدلى لتصغي وتسمع

كانت عينى قد تركت ماكينة الخياطة ، لتصاول فى هذه المعركة المحتدمة . فهى ترد على هذه وتارة على تلك ، تساعدها فى ذلك بنتاها . ان النساء المجتمعات عاجزات عن مغالبتهن هن الثلاث ، رغم كل ما تقذف ألسنتهن . كانت عينى وفرختاها تصبان عليهن كلاما يقد من قلوبهن مزقا حية

وفى أثناء ذلك كانت امرأة ذات مشية معرقصة ، وأثواب متراكمة على جسمها تراكم قشور البصلة على البصلة ، كانت هذه المرأة تجر نفسها قلقة الى وسط الفناء من دار سبيطار . لم يلاحظها أحد فى أول الامر . ولكن حين رأى الحشد هذه المخلوقة السوداء المكورة ، صمت صخبه على حين فجأة ، وجمدت النسوة فاغرة أفواههن ، وراحت تتباعد لتفسح لها الطريق . ووقفت العجوز أخيرا ، ووضعت يديها على وركيها ، وحاولت أن ترفع رأسها نحو عينى . ولكنها عدلت عن ذلك . انها مالكة البيت . ياله من صمت ..

وقالت أخيرا بصوت كأنه صوت بنت صغيرة :

– من أنت ؟ من أنت يا من تسمحين لنفسك بأن تعكرى صفو بيتى ؟ انك لا تزعجين هؤلاء الناس الا أنهم خير منك ، فأنت تحسدينهم . أسكتن أنتن ، واتركن لى الكلام . لقد انتظرت هذا اليوم مدة طويلة ، فاتركينى أقول ما بقلبى . انك تنغصين علينا مسراتنا وأفراحنا . ونحن جميعا قد ضقنا بك ذرعا ، ضقنا ذرعا بهذه النظرات التى تلقينها علينا . لقد أصابتنا عينك الحسود بكثير من الاذى . هيا اتركى بيتى أنت وأولاد الحرام ، أولادك هؤلاء ، والا أخرجت بالقوة

وارتفعت أصوات بعض النساء تؤكد كلام العجوز ، بينما كان لون عينى يمتقع

وأجابت عينى قائلة :

ـ أنا ؟ أنا أحسدك أيتها العجوز الهرم ؟ أتظنين أنني أحسدك ؟ إلا اننى لارثى لحالك وأشفق عليك • اما أفراحك فلست أعكرها ، ولكن الله سيعكرها ، اذكرى انك تقربين من قبرك يوما بعد يوم ، كيف لا ترقبين الموت وقد دب فيك منذ الآن ؟ مالك تقضين وقتك كله فى تأمل جدران بيتك ! ألا ليت هذه الجدران تسقط عليك • ياشقية ، ضعى الله فى قلبك ، واعلمى ان الموت معلق فوق رأسك . « تفو » عليك أيتها الضفدعة السامة المؤذية !

ـ الموت يأخذك أنت ، ويأخذ أسرتك كلها ، ويأخذ جميع أقربائك! أنا هنا فى بيتى يا لعاقة الصحون . سأريك من أنا ،

ـ أنا أعمل لاطعم أربعة أفواه • فهل عملت أنت يوما واحدا من حياتك يأيتها المرأة العقيم ؟ طبعا لا ••

ـ أمثالك فى المواخير ، فهى المكان الوحيد الذى يصلح لكوتصلحين له •

ـ نحن فقراء ، ولكن سمعتنا نظيفة والحمد لله

ـ ما أنت الا شحاذة

ـ لعلك تنسين يابالوعة طافحة أن أخاك قد فطس فى السجن • كومة لصوص •

كان قلب عينى يوشك آن ينفجر حنقا

ـ سكوت ، صمت ، يا نساء

ان زينة هى التى أصدرت هذا الامر من الطابق الاول • فارتج على النسوة وأخذن يتأملن هذه المزعجة التى جاءت تفسد كل شىء • ترى ما الذى تريده هذه أيضا ؟

ـ اسمعوا • لقد اعتقلوه • بنتى زهور ، وهذه هى ، رأت رجال الدرك يكبلون يديه بالسلاسل • وفى وسعها أن تقص عليكم النبأ •

قالت زينة ذلك ، ودفعت ابنتها الى الدربزين • فرفعت النساء رءوسها منشدهات

ـ من الذى اعتقل ؟

لم يعرفن من التى طرحت هذا السؤال غير أنهن تنبأن بالامر جميعا فانقبضت قلوبهن انقباضا رهيبا • ان البيت كله قد ادرك الموضوع من هذه الصرخة ، فرانت عليه غيوم قاتمة من حزن

قالت زينة مندهشة :

ـ من هو ؟ اتسألن من هو ؟

فلم يجبها أحد . أكن يصطنعن الغفلة والجهل ؟
وكررت زينة تقول فى احتقار :

ـ ألم تفهمن ؟
وهنا انفجرت فاطمة تصرخ :

ـ آى ... أخى
انطلقت صرختها فجأة ، وما انفكت تتسع :
ـ آى أخى ، ويلى .. أخى .. اى . اى . اى ..

فى هذا الجو الذى كان مشحونا بالقلق والحقد والشقاء ، ألمت بدار سبيطار لحظة من شرود . ان العدو يترقب خارج البيت الكبير . انه ينتظر أن تحين ساعة ليثب . نسيت النساء مشاجرتها فى لحظة . انطوت دار سبيطار على نفسها

وأخذت زهور تقص ما سمعته دون أن تراه بعينها ـ فى بيت أختها بقرية بنى بوبلان . كانت هابطة من القرية حين انتشر الخبر : وهو أن حميد سراج قد قبض عليه كما قبض على عدد من الفلاحين . وأصبح الناس فى القرى لا يتحدثون الا عن هذه الاعتقالات

قالت احدى النساء :

ـ ألم يكن الخال محمد رجلا يعرفه جميع الناس فى المدينة ؟ ألم يقبضوا عليه فى الشهر الماضى فى الشارع دون أن يعرف سبب ذلك ! ألم تذهب زوجته الى « الامن العام » بعد اعتقاله ببضعة أيام ؟ كانت تريد أن تعرف شيئا عن أنبائه ، وأن تحمل اليه بعض الطعام . فما كان أشد دهشتها حين رأت الطبيب العجوز برتويل يخرج . أليس معروفا أن برتويل هو طبيب الموتى ؟ وبعد الظهر نقلت جثته الى المستشفى العسكرى . لم يكن الخال محمد حتى ذلك اليوم قد دخل محكمة من المحاكم فى حياته كلها . وقد وصل الى مقر الشرطة سليما معافا ، فاذا هو يخرج منه بعد ثلاثة أيام جثة هامدة .

ـ ماذا تقولين ؟

طرحت فاطمة هذا السؤال ، وأخذت تضرب فخذيها وهى تنتحب . كان عمر فى هذه الاثناء يأخذ اللعب مأخذ الجد . انه فرح بالحياة

مسترسل فيها ، مشغول بذلك الى درجة كافية . انه يعيش حياته هدرا ان صح التعبير ، يقبل على كل أمر من الامور على ما يريد له هواه .

انه لا يبالى شيئا ولا يحفل بشىء ، يشفع له بذلك أنه طفل .

وكان الجوع الرهيب لا يتركه يوما من الايام ، فليس فى البيت شيء يأكله . وكان يبلغ من فرط الجوع فى بعض الاحيان ان لعابه يتحلب فى فيه زبدا . كان همه الوحيد اذن هو أن يعيش .. أن لايموت .

وقد اعتاد فى اثناء ذلك ان لا يشبع ابدا . ألف الجوع وألفه الجوع، حتى أصبح يعامله معاملة الصديق للصديق ، فلا كلفة بينهما . لقد قامت علاقتهما على أساس من اللباقة المتبادلة الخفية اللطيفة التى لا يستطيع الا التعارف الواسع ان يولدها بين اناس يسىء بعضهم الظن فى بعضهم الآخر اول الامر، ثم يحسون أنهم قدخلقوا بعضهم لبعض. وبفضل هذا التفاهم قلب عمر انواع اللامبالاة التى تنشأ عن الخوف والكسل ، قلبها الى حب . فلو خطر بباله أن يفصح عما فى أعماق نفسه لقال، ولا شك ، هذا الكلام : « ايه أيتها الام الحبيبة ، ايها الجوع لك منى أرق الكلمات .. » .

كم مرة ركع على قدمى الجوع فى المساء ، وقد غرقت نفسه وعيناه فى تحية واسعة ، بينما الجوع يبتسم له ويبتسم .. ويقترب منه ، ويغمره بوجوده السمح الرحيم . ثم اذا بنوم يقظ يرنق فى عينيه ، فينام والجوع يهدهده بحركات خفيفة ، خفيفة جدا .

— ١٦ —

حين عاد الهدوء قليلا ، سمع عمر أمه تطلق النداء تلو النداء . لقد عيل صبرها فصوتها يرتج ويرتجف وهى تنادى اولادها واحدا بعد آخر . كانت تهيب بهم من خلال الضجة التى ما زالت ترين على البيت أن يعودوا . ان الغضب مستبد بها . وما هذه باللحظة التى يجوز فيها أن لا تطاع . ان طاعة أولادها تحمل لها العزاء وتخفف عنها ما بها . لقد شقيت عينى فى حياتها كثيرا ، وعانت من البؤس منذ عدد كبير من السنين ما جعل أعصابها تتهدم تهدما فى هذا الكفاح المرير الذى تخوضه كل يوم .

وأخذ أولادها يستجيبون للنداء ، فكلما وصل اليها احد منهم دفعته الى داخل الغرفة ، وضربته على منكبيه . غير ان مريم لم تصل . لم يقلق أحد لتخلفها ، فلا بد انها آتية آخر الامر .

واشتدت حلكة الظلام . ان عددا من النساء العنيدات لا يزلن فى حديث تحت .

وأخذ ألم الجوع يشتد شيئا بعد شيء ، وأخذت أمعاء الطفلين تقرقر . فطلبا الى امهما ان تعطيهما شيئا يأكلانه ، طلبا اليها ذلك فى أول الامر على خجل . ان عينى تبدو مهدمة محطمة . ثم توسلا اليها توسلا . فنهضت الام ووزعت عليهما كسرا قديمة من الخبز ، مع نصف خيارة وقليل من ملح . قشر عمر قطعة الخيار . ولكنه لم يرم القشر ، بل وضع بعضه على جبينه وصدغيه فشعر من ذلك ببرودة شديدة ، وأكل الباقى . ثم رش على اللب ملحا وعضه .

ان الشفاه تطقطق فى هدوء .

ونظرت عينى الى الباب ، ثم نادت وفمها ملىء بالطعام :

— مريم ، مريم .

لقد رفعت صوتها فى النداء عاليا بحيث يمكن ان يسمع من بعيد .

ثم عادت تصيح :

ـ يارب السماء ، تعالى كلى يامريم ! ماذا تفعلين ؟
ما من شيء يدل على ان البنت فى البيت .
فهتفت عينى تقول :
ـ لا شك أنها خرجت . أفى هذه الساعة ، يارب ! آه ما أشقانى! ما أشـــــقانى !
وعادت تمضغ لقمتها فى بطء .
وقامت بعد قليل فرفعت الستارة التى تحجب الباب ، فرأت ابنتها مريم على بعد خطوة من العتبة . هبطت درجة المدخل . ان ابنتها تنظر اليها ساكنة فى مكانها لا تتحرك .
ـ ما بك ؟
ـ اذا كانت هذه النسوة تتكلم هذا الكلام كله ، فلانها لا تعرف كيف تسكت . الا أن الموت أفضل من هذا .
كان صوت مريم ضعيفا ، كأنه آت من عالم آخر :
سألتها عينى :
ـ الست جائعة ؟
ـ بلى .
ـ اذن فتعالى كلى .
ـ لماذا لم تنادينى ؟
كان وجه مريم جامدا لا يعبر عن شيء . فلما رآها عمر على هذه الحال « لما رأى ظلال نفسها ترتسم على وجهها ، أحس بخوف ، دون ان يعلم لماذا . كثيرا ماأتفق ان اكتشف فى نفسه تمزقا كهذا التمزق، فكان فى كل مرة يدفعه عن نفسه فى حزن شديد . وعادت نظرته تنصب على اخته . انه يرى فى عينيها رجاء . هل الرغبة الوحيـــــدة التى تجيش فى نفس مريم هى ان تترك الحياة ؟
واستغرب أن تراوده هذه الفكرة . وها هى ذى تلتفت الى وراء قلقة ، كأنما لتحدق الى الليل .

***

كل ذلك الماء الذى سكبوه على الارض لم يجدهم فى شيء . كانوا جميعا يعرفون ذلك . هذا حر شديد يسقط عليهم فى المساء . ان أجسامهم رطبة لزجة .
وبدأت ليلة لاهثة . قامت البنتان ، تستحثهما امهما ، فمدتا فى وسط الغرفة جلود الخراف . التحق عمر بالجلد المخصص له . وكان

مصباح كهربائى معلق فى السقف بلا صحن ، يثقب بنوره الظلام . ان عمر ، من خلال عينيه المغمضتين ، يحس بحد هذا النور ينفذ فى لحمه. وفيما هو ينام تراءت له امرأتان . أهما زينة وبنتها زهور ؟ انهمـــا تتهامسان مع عينى . شعر باضطراب وانزعاج غريب . ان نظـــرات النسوة الثلاث تثير فيه الحمى . لا يزال الحديث المخنوق السريـــع مستمرا . انه تلاوة رتيبة . وابتردت ركبتاه فجأة ، فى لحظة .

بدا له ان هؤلاء النسوة يخشين الكلام . انهن يختلسن النظر اليه فى صمت من قاع الغرفة . حنق عمر على هاته الدخيلات . هذه الغرفة التى كان يأمل ان يهدأ فيها ، ها هو ذا مضطر الى ان يكرهها بسبب هذه الاشباح القاعدة . ما شأنهن وأمه ؟ وهذا شخص يتكلم فى فناء البيت . وفجأة أصبح من المستحيل على عمر ان يحتمل نظرات هذه النسوة أكثر مما احتمل .

ان قرطـــا من نور وصمت يطوقه . والنور والصمت ليسا الا ظلمات . لم يدم هذا الا لحظة واحدة ، ثم سرعان مانسى عمر آلامه . هذا هو الفناء يعج بالنساء ، يجتذبهن جو الهياج والفضيحـــة الذى لا يزال يخيم على دار سبيطار . الاصوات يختلط بعضها ببعض ، ولا تصل الى اتفاق . محاورات تبدأ فى دمدمة خاطفة ثم تنفجر فى اندفاع من كل حدب وصوب . ان النساء اليوم هائجات هياجا غريبا . مابال هذا الجمهور مستاء ؟

ان احداهن تقول له :

ـــ اخرج من هنا ياعمر ... لسوف تلاحقك اللعنة طوال حياتك.

وهذه أخرى تلطم فخذيها كأنما ثمة مأتما . انها تطلق فى الهواء شكاة حادة تشقق الليل ، كأنها زئير موت . ان النساء جميعا تصر اصرارا قويا على ان تدوس كل ما على الارض فى الغرفة حول عمر .

وانهن ليرسلن صيحاتهن بأصوات بلغت من الحدة والحداد ان الصبى ظل خلال ساعة لا يشغله شىء غيرها ، ناسيا ألمه . وعاد الى نفسه فأدرك انه ما من صوت يصل الان الى الغرفة . حاول بألف صورة وصورة ان يفهم ما حدث . ان الصمت الذى أعقب ذلك الصخب كله يحيره ، يحيره أكثر مما حيره ذلك الكلام المضطرب الذى كان يصل الى مسامعه منذ لحظة . أحس ان ذلك كله كان يأتى من عالم آخر . وفى معدته كان الطعام الذى تناوله ـــ الخبز والخيار ـــ يزداد ثقله شيئا بعد شىء .

- ١٧ -

كان عمر قد انتهى الى تشبيه بيت سبيطار بسجن . ولكن ماحاجته الى كل هذا الايغال فى التفكير ؟ أليست الحرية قائمة فى كل فعل من أفعاله ؟ كان يرفض ان يتناول من يد الجيران قطعة خبز يتصدقون بها عليه ، فهو حر وكان يغنى اذا شاء ، ويشتم هذه المرأة التى يكرهها، اذا أراد ، فهو حر . وكان يقبل ان يحمل خبز تلك المرأة الاخرى اذا أحب ، فهو حر .

ولكنه رغم الشعور العنيف الذى يهيئه له مظهر الاستقلال هذا ، كان يحس أن الامور لا تجرى على النحو الذى يرضيه . ان غريزة حاقدة عنيدة صافية دائمة اليقظة كانت تدفعه الى التمرد على كل شيء . كان عمر لا يقبل الحياة على نحو ما تعرض له . كان ينتظر من الحياة شيئا آخر غير هذا الكذب وهذا النفاق ، وهذه الكارثة التى يدركها ، كان ينتظر من الحياة شيئا آخر . وكان يتألم ، لا لانه طفل ، بل لانه قد ألقى فى عالم يستغنى عن وجوده . ان عالما كهذا ، عالما يفرض نفسه فما يمكن رفضه ، لابد ان يكرهه . ان عمر يكره هذا العالم ويكره كل ما يرتبط به ويمت اليه بصلة .

- لم يكن يصدق كلام الاشخاص الكبار ، ولا كان يعترف بما يسوقونه من حجج ، ولا كان يحترم ما يأخذون به أنفسهم من جد . وكان يكذب ما يظهرونه من ثقة . حين كانوا يلقون عليه نظرة السيطرة والسيادة ، كان فى سره يعزى نفسه بأنه لا يزال صغيرا ، وكان يمنى نفسه بأنه سينتقم متى تقدم فى السن وبلغ مبلغ الرجال . ان ما يقوم فى أذهان الاخرين عنه من أنه طفل صغير طيب، اوشخص سيىء ،ليس ناشئا الا عن لبس .

ومع ذلك فان شيئا ما كان يمنعه فى عناد عن ادراك الحياة كاملة ملأى . ان هناك حجابا يمنع عنه هذا الاكتشاف . وكان يذعن لهذه

الحياة فى يسر هو ذلك اليسر الذى يتجلى لدى الاطفال نوعـــا من الانفصال . على انه وقد حاصرته القوى الغامضة التى تهدد وجوده ، كان لا يتقدم فى هذا العالم الذى كان عالمه الا فى كثير من الاضطراب والحيرة .

كان أهله ، وجميع اولئك الذين يضطربون من حوله الى غير نهاية، يذعنون فيما يظهر لهذا المعتقل . انهم يحاولون ان يضيقوا حياتهم وان ينزلوا بها الى مستوى الحياة فى زنزانة من سجن . صحيح ان كل واحد من هؤلاء الناس كان له فى أعلى السقف من زنزانته كوة صغيرة ينزل عليه منها نور ضعيف . ولكن مامن أحد كان يخطر بباله ان يتساءل من أين يأتى هذا النور . هل كان ينبغى لاحد ان يرفع عينيه الى أعلى ؟ هل كان يتسع وقت احـــد لان يرفع عينيه الى أعلى ؟ مستحيل ! كانوا جميعا ينتقلون من عناء الى عناء وأنوفهم فى التراب، وما ينفكون يتحركون كأنهم النمل فى ذهابه وايابه بلا انقطاع . غيران بعضهم ، وهم أناس مجانين .. اذا نظرت الى الامر من جميع وجوهه، كانوا يقفزون الى تلك الكوة ، لا يدرى احد لماذا ، فيتشبثون بقضبانها الحديدية التى تحول بين أحد وبين الخروج منها ، وينظرون الى السماء الزرقاء صارخين : ماذا ؟

كانت دار سبيطار تعيش حياة طائشة عمياء ، حياة يهزها الحنق والغضب والخوف فى كل لحظة . كل كلمة تقال فى هـذه الدار فهى شتيمة او نداء أو اعتراف . وكان أهل الدار يحتملون مايحدث فيها من اضطرابات فى مذلة . ان الحجارة فى هذا الدار تعيش أكثر من القلوب.

كانت عينى تقول فى كثير من الاحيان :

ــ نحن فقراء .

وكانت النساء الاخريات من سكان هذا البيت تقول مثل هــذا الكلام .

ولكن لماذا نحن فقراء ؟ لا أم عمر ولا النساء الاخريات كانت تجيبه عن هذا السؤال . كان بعضهم يقول أحيانا : هذه قسمتنا ، أو : الله أعلم . ولكن هل هذا ايضاح ؟ كان عمر لا يفهم كيف يكتفى أحد بمثل هذه التفسيرا ت . لا ، ان تفسيرا كهذا التفسير لا يوضح شـــيئا . هل كان الاشخاص الكبار يعرفون الجواب الحق ؟ هل كانوا يريدون

ان يحتفظوا بهذا الجواب مخبأ فى صدورهم ؟ هل هذا الجواب لايحسن اعلانه ؟ كان الرجال والنساء يخبئون أشياء كثيرة ، أما عمر الذى يعد هذا الموقف موقفا صبيانيا ، فكان يعرف ما يخفون من أسرار .

انهم خائفون ، وهم لذلك يحبسون ألسنتهم عن الكلام . ولكن مم هم خائفون ؟

انه يعرف كثيرا من هؤلاء الناس : أهله وجيرانهم وجميع الذين يملأون دار سبيطار ويملأون دورا أخرى كدار سبيطار ، وأحياء أخرى كالحى الذى تقع فيه دار سبيطار ، كل أولئك فقراء . ما أكثر عدد هؤلاء الفقراء !

ـ نحن كثير ، وما من أحد يبلغ من البراعة فى العد ما يكفى لاحصاء عدد هؤلاء الفقراء !

ان انفعالا غريبا قد قام فى نفسه حين خطرت له هذه الفكرة .

وهناك أغنياء : اولئك يستطيعون ان يأكلوا . وبيننا وبينهم حاجز .. حاجز عال عريض كسور من الاسوار .

ان الافكار تزدحم فى رأس عمر مضطربة جديدة ، ثم تغيب فى فوضى كبيرة .

وما من أحد يثور ويتمرد . لماذا ؟ الامر غير مفهوم .. ومع ذلك فما أبسط هذا التمرد . هل هؤلاء الاشخاص الكبار لا يفهمون اذن شيئا ؟ الامر بسيط مع ذلك .. بسيط .. انه بسيط .

وظل الصبى يردد : بسيط . وطفقت هذه الجملة الصغيرة تترجع فى دماغه الموجع ، وتترجع ، حتى لكأنها لا تريد أن تغيب ..

ـ لماذا لا يتمردون ؟ لماذا لا يثورون ؟ أهم خائفون ؟ مم هم خائفون ؟

ان الجملة تتردد فى رأسه بسرعة مدوخة .

الامر بسيط ، بسيط .

زيغان لا نهاية له .. وهذه ذكرى حميد سراج وهو يتحدث الى جمهور كبير ، تقوم فى ذهن عمر . كان حميد سراج يقول يومئذ : الامر بسيط .

— ١٨ —

المقر الواقع فى شارع « باس » مزدحم بالناس . والصمت عميق، فلو طارت ذبابة لسمع صوت طيرانها . الناس يصغون : انهم رجال من القرى ، فلاحون حملوا الى هذا المكان رائحتهم الحادة القوية، رائحة الارض المفلوحة والحقول . انهم ينصتون بلا حراك . ان واحدا يتحدث. جلابيبهم السمراء الخشنة تنشر بخارا يكثف به الجو ، ويثقل به هواء المقر الرطب . ان الجلابيب قد امتصت كل المطر الذى انهمر على ظهورهم فى الصباح وهم آتون من قراهم سيرا على الاقدام . وقد تجولوا قليلا فى المدينة قبل ان يتلاقوا فى هذا الاجتماع . ان المتكلم يتكلم فى آخر القاعة . وفى الجو الداكن تتصاعد انفاس السجائر ، والى المكان يتسلل نور ضعيف من نافذة عالية . انهم يسمعون الكلام واضحا .

« ان العمال الزراعيين أصبحوا لايستطيعون ان يعيشوا بهذه الاجور الزهيدة التى يتقاضونها . انهم سيتظاهرون بقوة » .

وضرب الخطيب على ذلك أمثلة بأراض يعرفها الفلاحون . « يجب أن نتخلص من هذا البؤس » . ان عباراته الواضحة تدخل الطمأنينة الى النفس : ان كل ما يقوله حق . ان رجلا يتحدث على هذا النحو ، يثق الناس به . ليس فيما يسوقه من حجج أى شىء من هوى أو غرض .

« العمال الزراعيون هم أولى ضحايا الاستغلال الذى يعيث فى بلادنا فسادا » .

ان لهجته تطلب من كل فرد من الافراد أن يفهم ، فما يظل شىء من الاشياء غامضا . يجب توضيح كل أمر وتبديد كل ابهام . قال الخطيب: ان العمال الزراعيين مقبلون على معارك كبيرة . ان لهجة الخطيب هى لهجة من يخاطب كل فرد من أفراد الجمهور على حدة . فهو يتحدث بالامر الى هذا ، ثم الى ذاك ، ثم الى الثالث ، وهكذا دواليك .

« الاجور لا تزيد على ثمانية او عشرة فرنكات · لا ، هذا مستحيل ، يجب المبادرة فورا الى تحسين ظروف معيشة العمال الزراعيين . علينا أن نعمل بقوة وعزم للوصول الى هذ الهدف » .

ان فى أعين الرجل نظرات عميقة .

« ان العمال المتحدين سيعـرفون كيف ينتزعون هـذا النصر من المستعمرين ومن الحكومة العامة . وهم مستعدون للنضال » .

فى هذه اللحظة دخل سرب من الاطفال على راسهم عمـر الذى سرعان ما أحس بيدى رجل تقبضان على كتفيه النحيلتين . والتفت عمر فرأى فلاحا واقفا وراءه ممسكا به · لم يعد يستطيع أن يتحرك وكذلك الصبية الآخرون . وعندئذ عدلوا عن التنادى وعن العـدو فى مختلف الجهات . ان هؤلاء الرجال فلاحون ، ولكنهم لطاف رقاق الحاشية حقا . وراح الصبية يفعلون مثلما يفعلون ، فـكلما انقضى الوقت ازدادوا رصانة وجدا . ان الرجل القابض على عمـر يرخى يديه شيئا بعد شىء دونما شعور · صارت يداه خفيفتين · وما لبث عمر ان أصبح لا يحس بوجودهما . لقد رفعهما الرجل عن كتفيه . ان هدوءا كبيرا يشيع فى نفس عمر . أصبح عمر لايعرف منذ اية لحظة اخذ ينصت . وانه ليسمع كلام الخطيب ، فكأنما هو يتعرف فيه ما بنفسـه

« يقول المستوطنون .. ان سكان البلاد لا يعمـلون الا اذا ماتوا جوعا ، فمتى ملكوا ما يسدون به جوع يوم واحد ، حملهم كسلهم على ترك العمل . ولكن الحق ان الفلاحين انما يعملون حتى الآن من أجل هؤلاء المستوطنين . ان هؤلاء المستوطنين يسرقونهم . انهم يسرقون العمال . ولا يمكن ان تستمر الحياة على هذه الحال . »

قال بينه وبين نفسه : صحيح . وفجأة ارتعش . لقد رأى حميـد سراج . أن حميد سراج هو الذى يتكلم . انه هو .. هو حميد .

هذه الكلمات التى تشرح الواقع ، هذه الكلمات التى تعلن مايعرفه جميع الناس وما يراه جميع الناس ، غريب حقا أن يوجد بين رجالنا من يقولها ، غريب ان يوجد بين رجالنا من يقولهـا على هذا النحـو الهادىء الواضح ، من غير اى تردد ·

لقد بلغ شقاؤنا من الشدة انه أصبح يعد هو الحياة الطبيعية لشعبنا

لم يكن هناك من يشير الى هذا الشقاء ، من يدل عليه ويرفع صوته في استنكار . او هذا ما كنا نظنه على الاقل . وها هـم اولاء أناس يتحدثون عنه على مسمع منا ، ويضعون عليه الاصبع قائلين : هـذه هي العلة . ونحن لايسعنا الا ان نجيب : نعم . هؤلاء رجال أقوياء . انهم علماء بالامور ، وانهم شجعان . انهم يعرفون الحقيقة كما نعرفها نحن . ولكنهم يمتازون علينا بأنهم يستطيعون أن يتكلموا فيها وان يعرضوها كما هي . اذا حاولنا نحن ان نفتح أفواهنا لنتحدث عنها ، أرتج علينا وذهلنا عن أنفسنا . لاننا لم نتعلم الكلام بعد . وهـذه الحياة هي حياتنا مع ذلك ، نحياها كل يوم من جديد . واذا كنـا نحسها احساسا أقوى حين يكون المحراث أو الفأس في أيدينا ، اذا كنا نحسها احساسا أقوى في الثمار التي نقطفها وفي ساق القمح التي نقطعها بالمنجل فاننا حين نلقى رجالا كهذا الرجل يتحدثون الينا عنها بهذا العلم ولا يكلموننا عن أمور بعيدة تربكنا ، نعرف كيف نجيب: نعم هذه هي الحقيقة . ذلك أننا نفهم . ان ما تنطق به أفواههم هو حقا الحياة التي نعيشها . انهم يوحون الينا بالثقة . هؤلاء الرجـال الذين نعرف أنفسنا في أقوالهم نستطيع أن نكلمهم وان نمشي وراءهم. نستطيع أن نتقدم معهم بخطوات قوية الى امام .

***

كانوا حقا يعيشون الحياة التي وصفها حميد سراج . لقد صـعد عمر عدة مرات الى بني بوبلان مع زهور التي كانت أختها متزوجة رجلا من الجبل . ان المزارعين في بني بوبلان يعيشون في يسر ، كما في منزل قره علي . ولا كذلك في الجهة الثانية من سفح الجبـل . في ذات يوم استحم عمر مع رفاقه في الحوض القائم على حدود أراضي قره ، حيث ينساب الماء في الخضرة بين اشجار التين والتـوت والميس . هناك يبدأ طريق منحدر الى الريف . وقد خطر ببال عمر فجأة ان يسلك هذا الطريق ليرى الى أين يؤدي . وكان يتوقع ان يرى بعد هذه المزارع مزارع اخرى . ولكنه لم يلبث أن سقط الى درب سبدو . ان سفح بني بوبلان يقع في هذا الموضع . صدق حميد . ان الناس هنا يعيشون في ثقوب بالجبل ، رجالا ونساء واطفـالا وبهائم . وفوق رءوسهم كانت هنالك مقبرة : فالأحياء يعيشـون تحت الامـوات .

سلاسل أبنية بعيدة تنتصب وراء فرجة الباب السوداء ، وترتسم في ظلام الليل من جانب . ان وضوحها يخدش الفكر . رأى عمر هذا المنظر ، فاستيقظ في قلبه شعور بشيء نسيه ، كالالم الذي يحس المرء انه ساقط عليه توا ، فلا بد أن يزدحم به قلبه بعد قليل دفعة واحدة . غير ان ما ينسى لا يكون أبدا رهيبا الى هذه الدرجة ، لايكون كتلك اللعنات التي صبتها النساء على رأسه في ذلك المساء .. وفجأة تراءى لعمر كل مافي حياته من قسوة . لقد قضى عليه ان يحتمل هـــذه القســوة الى الابد .

في الخارج ليلة من ليالي آب . الاضــواء تغمر قبة السماء من غير حرارة . ونظرة عمر الى الغرفة الساطعة المظلمة التي يرقد فيها ، ان عتبتها غارقة في ضوء القمر الذي تصل أشعته الى أرجل النــائمين وتأخذ تلمسها على مهل .

ان عمر يتقلب على فراشه . انه أرق . ثيابه تزعجه . ان الاكال يستبد بسكان الغرفة جميعا في الليل . فاذا الاظافر تتنقل بالحـك على البطن والاليتين والفخدين مدة طويلة . ان البق يخرج من مخابئه ويتسلل الى الفراش وما عليه متى خيم الظلام . لقد رشت الجدران بالكلس . ولكن البق لا يزال يدهم النائمين . كانت عيني تشـعل المصباح عدة مرات أثناء الليل ، فتسحق من هذا البق ما يتيسر لها سحقه . ان خطوطا سمراء ترى في الجدران عند الصــباح من أثر سحق البق باليد أثناء الليل . عبث . حتى بدون بق يشعر النائمون بأكال .

لقد نام عمر بقميصه ولباسه حتى لا يضطر الى التعري على مرأى من أختيه . وكان غطاؤه من جلد قديم . فلما سادت الظلمة رمى عنه الغطاء ، وخلع ثيابه ، ورقد على البلاط عاريا كل العري . انه يحس

بطراوة خلال لحظات . وكانت أمه ، فى ذات ليلة من الليالى ، قد أوصت اولادها ان يرش كل منهم فراشه بقليل من الماء ، فما كان من عمر ليلتئذ الا ان أحال فراشه الى بركة من الماء فمرض على أثر ذلك مرضا شديدا ، فأصبح لا يرغب فى تكرار هذا العمل .

ستارة المدخل مزاحة ، والنور يدخل من الباب فيشق فى ظلام الغرفة الكثيف طريقا عميقا مضيئا . ان عمر يتأمل السماء . كانت السماء تستحيل الى تألق غامض تغرق فيه النجوم . كان عمر راقدا قرب أمه . وفى الجهة الاخرى كانت تنام أختاه . انه لايجرؤ أن ينظر الى هناك ، خشية ان تكشف له عيناه اللتان ألفتا الظلام أختيه العاريتين مثله . أخذ بهذه الفكرة لحظة ، ثم تحرك فيه شيء من قلق .

وفجأة هبت على جسمه نسمة من هواء طرى . انه يسمع التنفس العميق المطرد يتردد من حوله . وباغت نفسه بعد النجوم ، فكلما خططت احداها السماء أحس ذلك ابرة فى قلبه . اغمض عينيه حتى لا تراه النجوم

***

كان الحر الشديد ، الذى يصاحبه الجوع دائما ، يؤرق لياليهم . غير ان الجوع أشد رهبة من الحر . انه ماثل لهم دائما . وكأن هذا الجوع فى جسم عمر أشبه بشعلة خفية لا تدرك ، تولد له نوعا من نشوة . لقد خف لحمه فجأة واسرف فى الخفة ، وضعف واسرفه فى الضعف ، فصار لا يسمح له ان ينغمس فى كثافة الليل حيث النوم دم وشهوات . نبتة جذورها تتموج بين الارض والسماء تمتص جسده ، فتفرغه كما تفرغ الثمرة من سنفها (١) . اشجار عجيبة كأنها الصواريخ ، تبلغ كمال نموها وتموت فى بضع لحظات ، ولا يبقى ثمة الا تلك النار الصغيرة البعيدة التى يحرق رأسها أرحامه ، بينما هو يهوم ضائعا تائها فى أمواج الليل الساكنة .

وتكلمت عينى فجأة . من تراها تخاطب ؟ من ذا الذى يسمعها ؟ أهى لا تكلم الا نفسها ؟

— ان هذا العمل يهد صدرى هدا . اصبحت لا أطيقه . لقد

---

(١) السنف : وعاء الثمرة

خارت قواي، وضعفت ساقاي . كل ما أكسبه لا يكفي لشراء ما نحتاج اليه من خبز ، مع أنني لا أدخر وسعا ، وأعمل ما استطعت الى العمل سبيلا . فيم هذا كله ؟

أدرك عمر ان عيوشة كانت تنصت لكلام امها . لم تنبس أختـــه بكلمة . وانصت هو أيضا . ان كربا شديدا لا يطاق يمسك به . أين كانت امه ، في أي ليـــل كانت ؟ ان عيوشة لم تنم . ولزمت عيني الصمت طويـــلا .

انها هي التي تحدث هذه القرقعة الضعيفة : تمد ساقيهـا على البلاط أو تضع ذراعيها وراحتيها على الارض . ان الارق يعذب عيني . كان عمر يرقب في الظلام أيسر حركة من حركاتها ، ولكنـــه يريد ان لا تعلم أنه يقظان . فلما عادت تتكلم كانت دهشته من ذلك كدهشته في المرة الاولى من أمر لا يتوقعه .

ــ لن نبقى على هذه الحال يا عيوشة . احرسي أنت الاولاد ،واغيب انا . لقد قررت أن أذهب الى عوجة . سآتي بعدد آخر من قطع الحرير . كثير من النساء يذهبن بغير انقطاع . فلماذا لا أذهب أنا أيضا ؟ ان آختي ماما لا تسافر عبثا . ما من اسبوع الا وتسافر مرة على الاقل . أتظنين ان هذه السفرات لا تعود عليها بنفع ؟ أكانت تترك عجوزها وأولادها وتقوم بهذه الرحلات كلها لولا أنها تجني منها ربحا ؟ لا شك انها تكسب مالا . هذا مؤكد . سأذهب انا أيضا . وستتولين أنت حراسة الاولاد أثناء غيابي .

أجابت عيوشة بصوت ضعيف :

ــ نعـم يا أمي

تقع مدينة عوجة على مسافة تسعين كيلو مترا في الجهة الثانية من الحدود . فالذين يستطيعون ان يدخلوا منها الى الجزائر بأقمشة مهربة ، يبيعون بضاعتهم هذه في الجزائر بأسعار عالية ، فيجنـــون ارباحا طيبة ، الى أن يقبض عليهم فيدفعوا ثمن مغامراتهم باهظا . غير ان المهربين لا يتوبون عن هواهم ، والحق أن التهريب هوى ، وان يكن بالنسبة الى سكان الحدود موردا من موارد الرزق أيضا ، موردا خطرا ولكنه ضروري . وأحيانا ما يؤدي الاصطدام برجال الجمرك الى كوارث ان كثيرا من الرجال والنساء يتعاطون أعمال التهريب هذه . على أن

حظ النساء المتدثرات بملاءاتهن (الحايك) كان أكبر من حظ الرجال في اجتياز الحدود دون ان يلاحظهن أحد . وكانت شرطة الحدود لا تطلب اليهن ابراز أية بطاقة . (من ذا الذي رأى امرأة من نساء سكان هذه البلاد تنحني أمام اجراء من الاجراءات الرسمية ؟) ولكن هل ترى تستطيع أمه أن تفلت من رجال الجمرك ؟ لقد استطاعت أن تجتاز الحدود في المرة الاولى ، ولكن هل تراها تستطيع ذلك في هذه المرة أيضا ؟ ان عمر يثور على هذا ويرفضه رفضا قاطعا بكل ماأوتي من قوة . تذهب الى السجن .. هي ؟ مستحيل .. ان المرء يستطيع أن يسرق ، وان عمر ليرى الناس من حوله يسرقون دائما ، وهو لايجد في اختراق القانون اى منكر ، ولكن عمر يحس بخوف شديد يقشعر له جسمه متى يخطر بباله العقاب الذي يترتب على ذلك . انه يخشى الالم . لقد كان جسمه يحس بالالم حين يتألم غيره ، وذلك بعدوى غريزية . لا ، لن تذهب أمه الى عوجة . ان عمر لا يستطيع التسليم بهذا الامر والاذعان له .

فهل يجب عليه ان ينقل اليها مخاوفه ؟ هل يجب عليه ان يحاول صرفها عن هذا المشروع الذي عقدت عليه النية ؟ انه ليعلم ، وا أسفاه انه سيصمت وأنه سيخفي اضطرابه . وهبه أفصح لها عما بنفسه . فانها لن تزيد على أن تسخر منه وتهزأ به . ذلك أمر لاشك فيه . فاذا الح فلابد انها سوف تقرعه وتؤنبه . انه صبي صغير ، فما ينبغي له أن يقحم نفسه في هذه الامور . ان الحياة جد لا يرحم . ثم لقد كان بينه وبينها حواجز أخرى .

قضت عيني تلك الليلة في اعداد خططها . لسوف تقوم بالتهريب، وقد سبق أن سمعها عمر تبسط مشاريعها للالا . انها من اجل لالا انما تسافر في هذه المرة

كانت تحاول أن تكافح . انها تجتر أفكارها بغير انقطاع . ماالسبيل الى كسب مزيد من المال ؟ كان عمر لايستطيع ان يصدق أن أمه يمكن أن تقبل السجن بهذه الخفة من أجل أن تزيد دخل الاسرة

ان المبلغ الذي كانت تتقاضاه أجرا على عملها كان من تفاهته يثير الحنق حقا . ولا مخرج من هذا العسر الذي كانوا فيه . انها تخيط سيقان احذية القماش منذ بضعة شهور ، ومع ذلك لم يشبع أفراد

الاسرة مرة طوال هذه المدة . وكان عمر يساعد أمه فى عملها. ولكن ذلك كله لم يجدهم شيئا . وقد فكرت عينى ذات مرة ان تبيع ماكينتها. ولكن الماكينة كانت ملجأهم الوحيد الذى يحميهم من العوز الكامل. فلم تلبث عينى ان غيرت رأيها وعدلت عن بيع الماكينة .

ترى لو باعت عيني ماكينتها أكان يكفى ثمنها لاطعام خمسة أفـواه اكثر من مدة قصيرة ؟ فما عسى ان يصيروا اليه اذن بعد أن ينفقوا آخر قرش من ثمن الماكينة ؟ هذا ما تساءلت عنه عينى ، ثم انتهت الى الحفاظ فى كثير من العناية على ماكينتها التي حصلت عليها فى أوائل عهدها بالزواج حين كان يجنى الشهد من زهر البيلسان !

ان هذه الماكينة تذكرها بالايام السعيدة القليلة التى عرفتها طوال حياتها الزوجيـة .

لقد بدأت عيني تستغل ماكينتها لإعالة أسرتها منذ خمسة عشر عاما، أى قبل وفاة زوجها بمدة طويلة . ظلت تدرز الاحذية للحذائين زمنا طويلا، ثم جاءها عمل من رجل اسبانى يقال له جونزاليس، يملك مصنعا لصنع احذية ، وكان لابد لها من قبول هذا العمل ومن الرضا بالاجر القليل الذى تعطاه .. بل ان حظها سعيد ما دامت تجد عملا، ولو ترددت قليلا فى الرضا بهذا الاجر لفر العمل من بين يديها فرارا، فما أكثر اللائى يتمنين أن تزيد حصتهن مما يوزع عليهن منه. لذلك طفقت تخيط سـيقان أحذية القماش هذه نسيجا أبيض صلبا ، بغير هــدنة ولا راحة

— ٢٠ —

لكن عينى كانت قد بدلت عملها عدة مرات

عملت مرة فى غزل الصوف ، أخذت تصنع العراقى ، ثم راحت تصنع لبادات تلبد باليد . وهى الان تدرز بماكينتها . كانت لها اذن حرف كثيرة . ولكنها لم تستطع يوما أن تجنى من عملها ما يكفى لسد الرمق . والاسرة كلها عالة عليها ، حتى الجدة بعد الآن

لقد اشتد نحولها حتى صارت عظاما طويلة لا يكاد يكسوها لحم . ان كل ما يصنع فتنة المراة قد زال عنها منذ مدة طويلة . لقد ذبلت ذبولا تاما . وقسا صوتها وتصلبت نظرتها .

ان عمر يصحبها بعد الظهر من ايام السبت الى الاسبانى جونزاليس يا لهذا الرجل ما كان أضخم كرشه .. أما خداه فكانا أشبه باليتين ينتفخ بهما وجهه .

انه فى يوم السبت يحاسب النساء اللائى يعملن له ، ويدفع لهن اجورهن . وكانت عينى تلتفت الى ابنها عمر ، بينما الرجل يحسب فتقول له :

— احسب أنت أيضا ، لنرى هل حسابه صحيح !

كان عمر يأتى مع أمه خصيصا ليتأكد من ان المبلغ الذى يدفعه الرجل لامه هو المبلغ المستحق لها فعلا . ان امه لا تعرف الحساب ولكن هذا لم يكن هو الغاية الوحيدة من ذهابه مع امه الى الرجل الاسبانى . لقد كان عليه ان يحفظ عدد « الدستات » التى دفع الرجل أجرها ، والمبلغ الذى دفعه ، فان أمه تخلط بين هذه الارقام خلطا كبيرا ، ولا تفهمها كثيرا

حتى اذا عادا الى البيت ، بدأت عمليات التثبت من صحة الحساب

— وتلك التى صنعتها فى ذلك اليوم ، هل أدخلها فى الحساب ؟

ويأخذ عمر يراجع الحساب كله من أوله الى آخره ليعرف هل ادخلت فيه تلك السيقان التى تذكرها أمه . ثم يقول :

ـ نعم ادخلها .
ـ وتلك التى حملتها اليه وحدها منذ اربعة أيام ؟
ـ الم نضفها منذ لحظة ؟ انت تعرفين أننا اضفناها ، فهى داخلة فى الحساب

ـ أردت ان اعرف هل أنت متأكد من ذلك
ـ متـــأكد

ـ مصيبة المصائب ان ننسى شيئا مما قدمناه له . نحن حتى بدون هذا النسيان ، لا نتوصل الى تدبير أمورنا

وعلى هذا الحال تنقضى ســاعات

وكانت عينى فى بعض الاحيان ، قبيل النوم ، أو حتى فى صباح الغد ، بعد أن يكون كل شيء قد حسب حسابا أخيرا ، تعود فتسأل ابنها بينما هم فى حديث آخر

ـ الا يحتمل ان تكون قد اسقطت من حسابك « الدستات » الاربع التى أحضرها عامل جونزاليس الى البيت بنفسه ؟ هذه الدستات الاربع لم آخذها أنا . فلعل الاسبانى نسى ان يدخلها فى الحساب

فكان عمر يطمئنها ، ويؤكد لها أنها حسبت مع الدستاتالاخرى . وكان يتيه فى آخر الامر ، فيؤثر ان يجيبهـــا بنعم على كل سؤال تلقيه . هل فى وسع أحد أن يجاريها فى طريقتها هذه فى الحساب؟

وكانت الأم تضع المال الذى جاءت به الى البيت فى حضنها على الفستان المشدود بين ساقيها ، (انهم يملكون ما يشترون به خبزا فى ذلك اليوم) ثم تقول :

ـ هذا للدقيق ، هل ترون كم سندفع ثمنا للدقيق وحده ؟
ان مريم تحدق الى قطع النقود والاوراق المختلفة ، وتسأل :
ـ كم ؟
ـ كل هـــذا ..
تقول عينى ذلك وتضع كومة من المال على حدة
فتنادى الصغيرة أخاها عمر قائلة :

ـ انظر .. كل هذا ثمن للدقيق وحده
ـ طبعـــا يا غبيـــة
ـ كيف يمكن هـــذا ؟

ـ هــكذا !

ـ اذن لن يبقى لنا بعد ثمن الدقيق الا قليل ، لن يبقى لنا شىء تقريبا . ذلك أن الكومة الثانية لا تزيد على أن تكون عددا قليلا من قطع النقد

وتقــــول الام :

ـ هاأنتم ترون كم يكلفنا الخبز وحده . فلا تفكروا اذن فيما عدا الخبز .. وان كنتم تمنون انفسكم عبثا .

وتســـأل مريم :

ـ لماذا لا تعملين أكثر مما عملت ، حتى نحصل على كومة كبيرة من المال ؟

ـ الا ترين يا بنتى اننى لا استطيع ؟

والحق ان عينى كانت تجهد نفسها فى العمل . انها لا تكاد تتوقف عنه لحظة واحدة . كان الاولاد ينعسون فى المساء فينامون ،وتظل هى ساهرة تعمل . حتى اذا استيقظوا في صباح غد ، وجـــدوها تعمــــل كذلك

ـ نستطيع ان نشترى بعض اللحم يا أمى ، هه ؟ عظيم ..كسكسى باللحم المسلوق مع المرق . ما رايك ؟

ـ اسكتوا هــــذه المجنونة

ان عينى تتأمل ، ساكنة جامدة ، هذا المال الذى هو ثمرة جميع تعـــابها

وعمر يفكر فى كل ما يمكن أن يأكلوه من طيبالطعام : عجةمصنوعة الدقيق مع بصل وبقدونس مفروم ونشارات سمك ، أو سردين مقلى، و حتى بصـــل مقلى

ومريم تعدد ما يمكن اكله مما لم يكونوا يأكلونه ، فلا تســـمع الا لمات « اسكتى اخرسى » التى تقولها لها أمها ، وهى تظن أن أمهـــا صغى الى كلامها

وتخرج عينى فجأة من تفكيرها فتصيح :

ـ ماذا تقولين ؟ الم اقتل نفسى قتلا بالعمل ؟ اترين ان هذا غير اف ؟ من أين آتى بالمال حتى نستطيع ان نأكل هذه الاشيـــاء التى ذكرينهـــا ؟ قولى ، اذا كنت تعلمين ..

وتنفجر مريم باكية .
وتقـــول عيني وهي تئن :

ــ يارب ، يارب . أوف أوف . اسكتوها والا صنعت بها ..
غير أن الصغيرة تزداد شهيقا

ــ أتريدون أن اعمل لصة ؟ أتريدون ان امضي مع الذكــــور في « المدينة الواطئة » أهو ذنبي اننا لا نستطيع شراء شيء آخر ؟

ويلوح في الام فجأة ان قدرتها على احتمال التعب قد نفدت

***

لم يكن بالمدينة عمل كثير . الفعلة وعمال النول وصناع البوابيج يسجلون في قوائم العاطلين . ولكن لا يتقاضى منهم شيئا بطبيعـــة الحال الا أولئك الذين يذهبون الى ورش العاطلين التي تنشأ لتعمل بضعة شهور . والمسجلون يقبلون في هذه الورش اسبوعين او ثلاثة ثم يخلون المجال لغيرهم . والقوائم طويلة . وكثيرون ينتظرون دورهم

والناس جميعا جيـــاع .

ان عمال النول ينقطعون عن أي عمل خلال الاســـابيع الاخيرة من الربيع وخلال الصيف كله ، أي خلال نصف السنة تقريبا . لا عمل لهم طوال هذه المدة . وكذلك صناع البوابيج . ذلك ان هؤلاء جميعا انما ينتجون لسكان القرى . وسكان القرى لايشـــترون الا حـين يفرغون من الحصاد . وهكذا فان أصحاب الحرف من أهل المدينـــة يقضون نصف السنة في محاولة تسجيل اسمائهم في ورش العاطلين

ولما كان عدد منهم يتعاطون الموسيقى أيضا ، فقد كان هؤلاء يعزفون في الاعراس وفي حفلات الختان وفي المقاهي خلال شهر رمضان . غير أن ذلك لا يمنع ان يظل ابناؤهم جياعا . فان الليالي الطويلةالتي يقضونها ساهرين يعزفون ، لاتدر عليهم شيئا يذكر . وكانت‌نساؤهم تعمل ايضا . ولكن عمل الرجال والنساء جميعا لم يكن ليدبرالامور . عما ذلك لان الجهد الذي يبذلونه قليل فلو قد كان الربح على قـــدر العناء لاصبحوا جميعا أغنيـــاء

وكان بينهم مع ذلك من يشرب الخمر بالقليل من المال الذي يقـــع بين يديه ، بل ان بعضهم ليسرف في الشراب احيانا ، فيكون ذلك سببا في استياء الحي كله منه ، وفي احتقاره له . كذلك كان محمد

شراك مثلا : كان محمد شراك ، وهو أحسن حائك واشهر رياضي في المدينة يبلغ من فرط الشراب في أيام الجمعة والاعياد انه يزعج المعجبين به ، ويأخذ يصوت كأن به مسا . كان الاطفال يتجمعون وراءه أسرابا هائجة وقحة ، ويأخذون يرمونه بالحجارة وهم يصيحون صيحات مجنونة :

ـ ديدو بوراشو ، ديدو بوراشو

ـ أتظنونني سكران يا أولاد الحرام ؟

كان الرجل يقف ويرمي الاطفال بوابل من شتائمه . فاذا هم يولون هاربين دون أن يكفوا عن زئاطهم وعياطهم

ويظل شراك واقفا لا يتحرك . انه يترنح على ساقيه ، ويلوح لهم مهددا متوعدا بحركة بذيئة . ثم يهمهم همهمة رضا وارتياح ، ويعود بعد ذلك يصرخ ساخطا مغتاظا وحده :

ـ حقيرون .. انكم لاتعرفون ما بقلبي .. ولا تعرفون اذن ما يحملني على السكر .. نهايته .. ولسوف أمعن في الشراب ، مادمت لا استطيع أن اعمل شيئا . وليحدث ما يحدث !

وينتهز سي صلاح هذه الفرصة ، وهو رجل تقي ، شديد العناية بلحيته ، فيقترب منه ويأخذ يعظه :

ـ اسمع يا محمد .. كيف تجرؤ على أن تسلك هذا المسلك ؟ هل يجوز لمسلم مؤمن أن يفعل هذا الذى تفعله انت الآن ؟ انظر .. انظر في أية حالة مزرية تضع نفسك امام اعين جميع سكان الحي الذين يحبونك ويقدرونك تقديرا عظيما .. ولماذا هذا كله ؟ هل تعرف ، انت على الاقل ، لماذا تسلك هذا المسلك ؟ أجبني .. أجب .. أيها التعس !

ولكن محمد الذى بلغ به السكر كل مبلغ لاينتبه الى أية وصية من وصايا الشيخ الذى راح يعظه وهو يلمس لحيته الكبيرة . وها هو ذا يضحك ويقول مستهزئا :

ـ حياتي تنقضي بلا جدوى . ولن آسف عليها . اما المال فاليك هو .. خذ ما شئت منه

قال محمد ذلك ونثر على أرض الشارع قبضة من قطع النقد بحركة مفاجئة . فسرعان ما انقض عليها الاطفال يجمعونها

وان احمد دزيرى ، والد عمر ، الذى كان أثناء حياته نجارا ممتازا ، كان يسرف فى الشراب أيضا . انه هو الذى صنع اكثر نجارات البيوت الجميلة فى زمانه . ولكنه أخذ بعد ذلك يدمن الشراب ويكثر من السكر شيئا فشيئا . ومرض فى ذات يوم وبقى راقدا فى فراشه بضعة أشهر ، حتى مات .

ولقد مات منذ مدة طويلة ، فليس يحتفظ ابنه عمر بأى ذكرى عنه . حتى لكأن الصبى قد نشأ بلا أب ، فانه لم يكد يعرفه . ولقد قيل ان الرجل أصيب بمرض فى صدره لم يمكن أن يشفى منه

وبقيت عينى أرملة تعيل اربعة أطفال : بنتين هما عيوشة ومريم وابنين هما جلالى وعمر . وما ان انقضت سنتان على موت الاب حتى لحق به جلالى وهو فى الثامنة من عمره ، بعد أن أصيب بذلك المرض نفسه : مرض الصدر

- ٢١ -

الليل الوعر الواضح يتلألأ على هون . ان جميع الليالى فى هذه الفترة لها هذا الصفاء القاسى نفسه . النوم يستولى على عمر ، ويفتح له نخروبا كبيرا فى بياض الليل العميق ، ولكنه لا يريحه . ان شيئا ما يتحرك فى كل مكان حول عمر شاقا اليه طريقا ...

كان يخيل الى عمر أنه لم ينقطع عن الكلام الى هذه الدقيقة لقد تهدم قاع حلقه ، حتى لكأنه قشر قشرا . وما هى فى الواقع الا بضع كلمات ، كلمات عريضة لم تفهم ، يرددها هى نفسها ، ويصر اصرارا عنيدا على اجترارها الى غير نهاية . انها تجتاز فكره كاعصار . طوال نومه ، بينما هو ماض قدما فى عالم مهدوم الاسوار ، كان يطلق نداءات كبيرة يخيل اليه أن شخصا آخر يردها اليه على الفور بلا رحمة . وانه لمستعد فى بعض اللحظات أن يحلف أن كلماته كانت كلمات شخص آخر لا يزيد هو على أن يرددها . وها هو ذا ينتقل على حين غرة الى وسط شوارع كبيرة تسطع سطوعا أسـود . ان رجالا متنقلين ، متلبدين فى زوايا الشوارع ، يهجمون عليه ، ويتمسكون بتلابيبه عند كل خطوة يخطوها . وهذه صيحات قريبة ، ولكنها لا تدرك ، تنطلق فى الجو .. ان فضاوات فارغة تتعاقب ويتلاحق بعضها وراء بعض . واحس عمر أنه قد سلخ من الداخل سلخا كاملا وتفتق . لم يبق فيه الا اصرار عنيد عنيف على التمسك بأهداب الحياة .. يريد أن يظل حيا رغم المعارك القاتلة التى يخوضها ، يريد أن يظل حيا

هذا الذعر ، كان عمر يراه ، فهو الان يترجع فى نفسه . انه هناك ، هذا الذعر ، جالس على فراشه ، يطوى قدميه تحته . قال عمر لنفسه :

« هو خوف جدتى ما فى ذلك ريب » كان يفهم من بعيد أن

جدته خائفة ، خائفة من عزلتها ، من وجودها فى المطبخ وحيدة مع دائها . كانت لا تكف عن التوسل والتضرع الى ساعة متأخرة من الليل ، بينما يكون جميع من فى المنزل قد غرقوا فى سبات عميق . وكانت تتوقف عن التضرع خلال بضع دقائق ربما لتعرف هل يستجيب لندائها أحد . أتراها كانت تتوقف أيضا بسبب الخوف ؟ لقد أيقظت نداءاتها عمر من نومه . ما من أحد يجيبها ، ان البكم يخنق البيت العتيق خنقا . تخيل عمر الظلمة التى تخيم فى كل مكان ، مستندة الى باب الغرفة ، مهددة عدوة .. ان هذا الشىء الضخم الذى لا يمكن أن يقول المرء ما اسمه يتربص فى انفناء . هذا صوت الجدة يعود الى الكلام فى هدوء ، من بعيد . انها تثرثر تخلصا من الكلال ، لا ذلك الكلال الجميل ، كلال الاجسام القوية ، بل كلال الشيخوخة . ان خواطرها التعيسة تشق لنفسها طريقا فى خلال الخوف ، والمرض ، والشيخوخة خاصة

الجميع فى غرفة عينى نيام . انفاسهم ذات الايقاعات المختلفة تتصالب فى الجو الكثيف . ومن حين الى حين يتنهد أحد النائمين أثناء نومه . انها عينى

وهذه شكاة تصل من قاع الظلمات . ان الجدة تنتحب :

ـ عينى ، عينى ..

ان المرء يحس من هذا الصوت ان العجوز فاقدة قواها

ـ عينى . أتدعينني وحدى ، يابنيتى ؟ ماذا صنعت من ذنب ؟ لماذا يا عينى ؟ لماذا ؟

ان الصوت يتلمس طريقه وكأنه يريد ان يختطف شيئا لايستطيع بلوغه . ما من أحد فى الغرفة يتحرك . انهم جميعا غارقون فى الخدر الذى ينصب على الأشقياء انصبابه على فرائس حية ، بلا هوادة ، ليصير فى آخر الامر الى اختلاط لانهاية له . ان هذا القلق النهم الذى ينهمر من الجدة على قلب الفتى يبنى حولهم قلعة بلا نوافذ ، عالما مغلقا اغلاقا لا شفقة فيه ولا رحمة .

ان عمر يعرف مسبقا ما سيحدث فى الغد .

كان الطعام يحمل الى الجدة فى تلك الطاسة الحديدية التى كان دهانها التشقق فى عدة مواضع يرسم نجوما كبيرة سوداء . كانت

عينى تضع الطاسة بين قدمى امها ، وفيها طعام اليوم ، دون أن تكون قد نظفتها . لقد تشكلت فى الطاسة طبقة من الدهن تلتصق بجدرانها كأنها قشرة .

— لماذا صحت ذلك الصياح كله أثناء الليل ؟ أحرام أن يهدأ المرء معك دقيقة واحدة ؟ أانت مجنونة !

هذا ما كانت تصبه عينى على رأس أمها .

وكانت الجدة تنتظر أن تبتعد ابنتها عنها .

انها تتقلص على نفسها ما دامت ابنتها أمامها . تخاف أن تنهال عليها اللطمات ، خوف طفل أو كلب صغير . انها مطوية طيا ، كأن ظهرها محطوم ، وقد وضعت رأسها على ركبتيها ، واخذت تطرف بعينيها من ناحية عينى دون أن تنهض رأسها . كان عمر جالسا على الارض أمام قدميها !

— هيه .. الا ترين اننى آتيـة بطعـامك ؟ أم ان ما آتيـك به لا يرضيك ..

هكذا كانت عينى تصرخ فى أذنها كأنه صوت الرعد ، وهى تدفع الى امها بالطاسة .

ولكن العجوز لا تتحرك . فكانت عينى تتناول الطاسة ، وتقبض على رأس الجدة ، ثم تدسها تحت انفها . فتقول الجدة :

— نعم يا بنيتى . رأيت . لماذا تعاملينني هذه المعاملة ؟

فتقول عينى ، وهى تهزها دون مراعاة :

خذى كلى .

وتضيف الى ذلك مدمدمة بين أسنانها :

« ليته سم »

فكانت الجدة تقوم بحركات مضطربة دون أن تستطيع كبح نفسها ، فتتناول الطـاسة بيدها التى ترتجف ارتجـافا مروعا ، وتضعها على الارض تحت الكرسى . وعندئذ تسحب عينى يدها التى تسند وجه العجوز ، فيعود الوجه يسقط على العظمتـين الكبيرتين ، عظمتى الركبتين . لقد أصـبحت العجوز عاجـزة من ضعفها عن نصب جذعها . لقـد تكسرت . لقد تحطمت تحطما لا برء منه

وتمضى عينى وهى تدمدم .

فاذا تأكدت العجوز أن ابنتها مضت ، حاولت أن تنهض راسها ، وأخذت تنظر بعينها الزرقاء الى عمر . كان لا يخفى على عمر أنها لا تكاد تدرك ما يقع لها . لقد أصبحت من الضعف بحيث لا تعرف كيف تحمى نفسها من عنف عينى . وفى نظرتها الفارقة التائهة كان يرتعش ذلك الشقاء الهائل ، شقاء بهيمة تشارف الموت .

وها هو ذا راسها يسقط مرة أخرى . على أن ضـياء نحيـلا يلتمع فى حدقتيها اللتين يغشاهما الضباب ، ضياء نحيلا كأنه شرارة سريعة . لقد عرفت أنه عمر

تلك فرحتها بشعورها انه الى جانبها . انها فرحة تنبع من أعماق عينيها وتتقدم نحوه مترنحة مهتزة .

ــ آه . . هذا أنت يا عمر ؟ لم يبق لى غيرك

كانت تنطق بهذه الكلمات وهى شبه نائمة . لقد اصبحت الجدة منذ مدة لا تنتبه الى شىء ، الا حين يحمل اليها الطعام ، فهى تضطرب عندئذ بعض الاضطراب ، ثم تدور براسها ، وتمد ذراعها ، وتأخذ كل جرايتها من الاناء الموضوع بين قدميها . كانت ،بأصابعها التى تتلمس الاشياء تلمس الأعمى ، تنقل ما تستطيع نقله من الاناء الى فمها الذى ينفتح من جانب ويأخذ ينفتل وينعقف . انها تأكل وهى تئن . وكانت ثيابها ملطخة ببقعة كبيرة من الدهن ، فى الموضع الذى يستند اليه فمها . وكان فتات الطعام الذى يعجز فمها عن الامساك به ينتشر عليها فى كل صوب .

وكان عمر وعيوشة يدمدمان دائما حين كانت عينى تزجر الجدة.

ــ لماذا تسيئين معاملتها الى هذه الدرجة ؟

فكانت الأم تنظر اليهما وتصيح متعجبة :

ــ انا ؟ أنا أسىء معاملة أمى ؟ متى أسأت معاملتها ؟

فكان الطفلان يحتاران ماذا يقولان ، ثم يطرقان براسيهما ، وهما يرددان : متى ؟ متى ؟

وتقول الأم :

ــ اسمعوا . . لقد عملت حتى الآن غاية استطاعتى . انكم ترون ذلك فى وجهى وترونه فى جسمى ، وأنتم ترون كذلك أن النتيجة

أخيرا صفر . لا شيء الا مزيد من التعب ، والا مزيد من العجز عن العمل . وبعد أن يعمل الانسان طوال حياته ، لا يبقى فى النهاية الا أن يعيش فى مأوى للعجزة أو أن يتسول . فاذا جاء الموت عندئذ كان ذلك خيرا . ان الموت هو لنا غطاء من ذهب . أما اذا لم يجيء الموت، أما اذا كان الموت لا يريدنا ، وظللنا احياء دون ان نستطيع القيام بعمل من الاعمال ، فتلك كارثة . وفى مثل هذه الحالة اذا لم يأت الموت الينا ، فيجب علينا أن نذهب اليه ، بل يجب علينا أن نشتريه بالمال اذا استطعنا ذلك . اننا نكون قد عشنا واكتفينا من العيش ، نكون قد عرفنا أنواع البؤس والشقاء ، ولم يبق فى هذه الحياة الدنيا ما يحملنا على التمسك بها . لن تأسف قلوبنا عندئذ على ضياع شيء ، لن نحزن عندئذ على ضياع شيء حين يصبح أحدنا عاجزا عن العمل ، فانه يستطيع ان يقول انه قد مات وانتهى الامر . وفى هذه الحالة ينبغى أن يأخذنا الموت بأقصى سرعة . لأننا نكون قد عشنا أكثر مما يجب أن نعيش . فمتى تم هذا جرت الامور فى مجراها ، وعادت الى نصابها .

لم يفهم الاولاد .

فأضافت عينى تقول فى حرارة وحماسة :

ـ ماذا ؟

فأجابت ابنتها الكبرى :

ـ تقولين ... أن الانسان يظل يعمل ، حتى اذا أصبح لا يقوى على العمل ، انتهت حياته .. قد يكون هذا خيرا ، ولكن فى بعض الاحيان قد لا ...

ـ قد لا يكون خيرا ؟ كيف لا يكون خيرا ؟ الانسان الذى أصبح عبئا من الاعباء ، الذى يأكل على حساب الاخرين ، الذى يحتاج الى من يخلع له ثيابه ... كيف لا يكون موته خيرا وخاصة حين يكون الآخرون فقراء ؟ ...

كان الاطفال ينظرون الى أمهم جميعا ، ثم يلتفتون بأبصارهم الى باب الغرفة ، الى ناحية المطبخ . وهمت عيوشة بأن تحرك يدها كأنها تريد أن تمنع أمها من الكلام . ترى ماذا يحدث لو وصل هذا الكلام الى مسامع الجدة ؟ كان الاطفال واثقين من أنه يكفى أن تلفظ هذه

الكلمات أمام الجدة حتى تقتلها حتما
والتفتت عينى الى ناحية المطبخ هى أيضا
قال عمر بينه وبين نفسه : متى أصبح انسان عبئا ..

وكان عمر يساعد جدته فى كثير من الاحيان . ومعنى ذلك انه كان يساعدها على أن تعيش . انه لم يشعر فى يوم من الايام بأنها عبء . رب امرىء يطعم أسرة بكاملها ثم يكون عبئا . هل الطفل عبء ؟ انني لا أستطيع أن أفهم هذه الامور !

وكانت الجدة فى بعض الايام لا تشرع فى تناول طعامها ، بل تترك ذراعها متدلية فوق الطاسة ، وتنهض رأسها خلال لحظة قصيرة ، وتنظر حولها هنا وهناك ، وتهز يديها الحانقتين فوق البلاط العارى ، وتأخذ تئن مدة طويلة

فكانت عينى تقول لأولادها :
ــ اتسمعون ؟
فيظل الاولاد فى الغرفة ، تاركين جدتهم فى وحدة المطبخ .
ــ انها متى احتاجت الى شيء تدعوننى أنا .
قالت عينى ذلك ، ثم أشارت الى عمر :

ــ اذهب اليها واعرف ماذا تريد . ولكن لا تبق هنالك مدة طويلة

كانت الجدة تمضغ جملا مبهمة غير متميزة ، وهى لا تزال تئن . انها تشتكى وتتوجع . وخيل الى عمر انها تريد من خلال عباراتها المشوشة أن تذكر أنها مهملة . كانت تقول ان كلابا تأتى اليها أثناء الليل ، وتظل تحوم حولها ، وانهم لا يصدقون كلامها مع أنه حق . ان هذه الكلاب تنهش ساقيها متى خيم الظلام فى البيت .

ان عينى التى سبق أن سمعت منها هذه القصة الف مرة ومرة ، كانت تجيبها بأن ذلك أضغاث أحلام ، وكانت تتهمها أحيانا بأنها تكذب . كانت تعتقد ان العجوز تريد بذلك ان تلفت الى نفسها انظار السكان ، وان تستدر شفقتهم .
وكانت تختم كلامها لها بقولها :

ــ هذه خيالات مجنونة ولن تقنعى أحدا بصدق خرافاتك هذه .

ولكن عمر فاجأ كلبا من الكلاب ذات مساء يصعد نحو الجدة . لاشك ان رائحة الطعام الذى فى الطاسة هى التى تجذبه الى هناك . ان

الجدة عاجزة عن منافسته على الطعام ، وعاجزة كذلك عن طرده . وبدا الحيوان للصبى ضخما ضخامة هائلة فى ضوء بقية من شمعة كانت مثبتة على الارض تنشر نورا مهتزا داميا . استطاع عمر مع ذلك أن يسيطر على خوفه فنهر الكلب وطرده .

ومنذ ذلك الحين ادركوا أن رائحة تفسخ قوية لا يعرف مصدرها ولكنها تدرك من بعيد لشدة حاسة الشم عند الكلاب هى التى كانت تجتذب الكلاب . ولما أصبحت هذه الرائحة قوية تزكم الأنوف فهموا أنها صادرة عن الجدة نفسها . فقررت عينى أن ترفع عنها الاغطية التى تلفع ساقيها وقدميها

كانت ساقا العجوز المجمـدتان اللتان لا تتحـركان قد انتفختا انتفاخا شديدا ، وأخذ يخرج منهما نوع من سائل يشبه الماء . وكانت الخرق التى تلفهما لا تبدل ، فلما نزعت عنهما عينى هذه الخرق ، رأت مع أولادها دودا كثيرا كأنه النمل يقرقر فى اللحم الابيض الرخو .

***

عالم الليل ، هذا العالم الصارم الخانق ، تنهدم فى هذه اللحظة جدرانه : ان النهار يطلع

ونام عمر شيئا فشيئا تهدهده نسمة الجوع الحارة الخفيفة . لقد أدرك فى باطن شعوره ان النهار يقترب ، فارتاح الى ذلك وسرى عنه . ان جسمه ليسترخى هادئا مطمئنا . هذه لحظة الخلاص . انه الان يستسلم للنوم . ليس عليه الآن الا أن يغوص فى النوم ، ليس عليه الا أن ينام ، أن ينام ، أن ينام ..

مضى يوم . ثم ثان . ثم ثالث . البؤس يجعل الناس فى دار سبيطار حزانى . وسكان غرفة عينى لا يزالون كما كانوا دائما ، مع زيادة قليلة فى الفقر . انتصاب الاطفال أصبح أضعف وأوهن . الوجوه فى البيت تتحفر وتزداد سمرة . الاعين لاتزال متسعة متمددة فيها التماع حمى . ومع ذلك كان عمر يصادف فى المدينة اناسا يبتسمون ، وتلوح فيهم مظاهر الصحة والشبع والاكتظاظ . ان عمر يلاحظ هؤلاء الناس مستغربا . انهم فرحون بينما الناس يعيشون فى شقاء وبؤس وعوز . لاشك أنهم يتبادلون فيما بينهم نظرات سريعة حين لايراقبهم أحد ..

لقد ازداد الكلام الان . ان البنتين تعملان منذ شهرين فى مصنع للسجاد . أصبحت عيوشة تحمل الى البيت أجر الاسبوع ، وكذلك مريم ، غير أن أجر مريم أقل من أجر عيوشة، لانها أصغر منها سنا. كانت البنتان تضعان المال الذى تجيئان به فى يد الام . وكانتا تقترحان عليها ما يمكن شراؤه من أشياء . اصبح من الممكن شراء زيادة قليلة من الدقيق قطعا . وكان عمر يصغى الى كلامهن منصتا ، ويقول بينه وبين نفسه : ليتنا نستطيع أن نحصل على مزيد من الخبز ، على خبز كثير .

وأصبحت البنتان تشتهيان كل شىء ، ما دامتا تجنيان بعض المال. « ربما استطعنا أن نشترى قليلا من اللحم من حين الى حين . ألبس كذلك يا أمى ؟ مرة فى الاسبوع على الاقل . ربما نستطيع أن نشترى بيضا . انه أرخص ثمنا من اللحم . نصنع عجة بالحمص. والفاصوليا أرخص من البيض أيضا . وشيئا من الرز . ما رأيكم أنتم ؟ بهذا المال الذى معنا ... »

كانتا تتكلمان دون أن ينضب لكلامهما معين

وكانت عينى تصغى اليهما ، وتدع لهما أن تتحدثا ما شاء لهما

هواهما . انهما تتدفقان فى قول كل ما تريدان قوله . وأخيرا تقطع الأم هذه الثرثرة كلها فى حزم . صحيح انهما تحملان الى البيت بعض المال . ولكن هذا أمر لا يحسب حسابه .

ها هما تسألان :

ــ ما رأيكم أنتم ؟

فتقول عينى :

ــ ان الأم هى التى لها القول الفصل ، أليس كذلك؟ الام هى التى تتكلم . وانها لتقول لكم : ان صنع أربعة أرغفة فى اليوم يعنى أن علينا أن نشترى ثلاثة كيلو من الدقيق كل يوم . طيب . معنى هذا أن علينا أن نشترى الدقيق أولا وقبل كل شىء .

وتأخذ عينى تعد المبلغ . ان عمر موافق على رأى أمه . الخبز قبل كل شىء . ويجب الحصول على أكبر مقدار ممكن منه . ان أحلامه لا تذهب الى أبعد من هذا المدى .

وتضيق أختاه ذرعا ويفرغ صبرهما فتقولان أخيرا :

ــ ما أجمل الحياة التى كان فى وسعنا أن نحياها لو لم يكن علينا أن نشترى هذا المقدار كله من الخبز !

انهما لا تفكران الا فى اللحم ، والبيض ، والرز . أما قليل من الخضرة المسلوقة بالماء ، وأما طبق من اليخنة المتبلة ، فذلك لا يعنيهما . ان عينى وعمر يريان أن قليلا من الحساء لتبليع الخبز كاف . فهناك أجرة البيت وثمن النور ، لابد من دفعهما : ستون فرنكا فى الشهر

كانا عائدين فى ذلك اليوم الى البيت . عمر يحمل على ذراعه قفة مملوءة بالحشائش والخضر المتنوعة لها من أوضمة السوق ، وعينى تحمل قادوسا طافحا بالماء يشد ذراعيها الى أسفل ، من فرط ثقله ، وتسير وراء ابنها متدثرة بحايكها الابيض الذى كانت حواشيه تزداد تفتقا يوما بعد يوم . عمر يجىء بالطعام ، وأمه تجىء بالماء من العين للشرب . ذلك لأن البئر فى البيت قريبة من المراحيض كل القرب ، يتسرب منها اليها شىء ، فعينى لا تحب ان تشرب من ماء هذه البئر . فلما وصلت عينى الى الباب وضعت القادوس على الارض فى ثقل وعناء ، ونادت ابنتها بصوت مهتاج . لقد أصبحت عاجزة عن التقدم خطوة واحدة أخرى . فهرعت عيوشة ، وهى تطلق صيحة

فرحة من داخل البيت . فاغتاظت عينى وقد أخذ منها التعب كل مأخذ . ان مزاجها الآن لا يسمح لها باحتمال شيء من عبث الاطفال . وكانت عاجزة عن الكلام من فرط اللهاث

أما عمر فكان يشعر بموت فى نفسه من طول مانبش أكوام الفضلات فى السوق المسقوفة . كان يذهب الى السوق بحثا عن خضر يمكن الانتفاع بها ، فاذا عثر على شيء منها ، أخذ يلتقطه ويدسه فى قفته ، وكان يعود من هذه الجولة وقد امتلأ قلبه حقدا وضغينة . لقد كان عليه أن يقوم بهذه المهمة كل يوم فى الساعة الحادية عشرة عند خروجه من المدرسة

وحين سمع فجأة صوت أخته يرن فرحا ، اشتعل قلبه غيظا . هو أيضا لم يطق المزاح . وكان غضبه ينفجر شتائم . ولكن سرعان ما قالت لهما عيوشة فى قوة وصرامة :

ـ صه !

واشارت اليهما بحركات عريضة من ذراعيها أن يدخلا بسرعة . ثم مدت أذنيها الى ناحية فناء البيت ، كأنما هى تخشى أن يسمع كلامها أحد . ان الفتاة مهتاجة اهتياجا شديدا . واستغربا هذه الاحوال العجيبة واحتارا فى تفسيرها . صاحت عينى تقول :

ـ ماذا ؟ انطقى ؟ قولى ما تريدين أن تقوليه ، ثم اهدئى

فدمدمت عيوشة :

ـ لا يا أمى . يجب أن لا يعلم الجيران بالأمر .. اخاف من أعينهم !

فقالت عينى تأمرها :

ـ خذى القادوس ، ولنصعد الى الغرفة

لقد ضعف صوت عينى ، وأصبح مترددا . انها توجس شرا . كثيرا ما كان توجس الشقاء هذا يلم بها ويفرق قلبها . فكانت تهبط فى مثل هذه الاحوال من أقصى درجات التنبه الى أعمق درجات الوهن والخور قالت مدمدمة بين أسنانها :

ـ ما نحن فى حاجة الى مزيد . لقد أجزل الله لنا العطاء ، وأنعم علينا بجميع الخيرات

كانت عينى كسائر النساء ، اذا قالت الخيرات عنت المصائب .

ـ حسبنا ما عندنا منها ، لقد أصبحنا لا نعرف أين نضعها . لقد

آذتنا العين الحسود بما فيه الكفاية واكثر .. هه .. هه ..
فأجابتها عيوشة قائلة :

ـ صحيح يا ما . ان الانسان لا يستطيع أن يفعل فى هذا البيت شيئا دون أن تتجسس عليه ثلاثمائة عين

قالت عينى تنهر ابنها :

ـ تقدم ، أنت . مالك مسمرا هكذا كالأبله ؟

فتبعهما عمر فى طواعية . وجرت عيوشة تعود خفيفة بخطوات صغيرة رغم ثقل القادوس الملآن . كانت تحمل القادوس أمامها بكلتا اليدين . وتحرص أشد الحرص على أن لا تتكسب منه قطرة واحدة . وكانت فيما هى فيه من نفاد الصبر تحث أمها على الاسراع . ان رنة من الرضا والسرور تشيع فى صوتها ، وهى ما تنفك تعجز عن اخفاء هذا السرور ، رغم كل ما تبذله من جهد . قالت الام لنفسها : ربما لم يقع شىء رهيب

وتوسلت اليها عيوشة وهى تجتاز الفناء مسرعة :

ـ أسرعى ياما .

وتلبث عمر قليلا ، وسأل أمه :

ـ ما هى العين ياما ؟

ـ شيطان يأخذك .

وقالت عيوشة :

ـ سترين ياما .

كانت قد وضعت القادوس فى الفرفة وقفلت راجعة

ـ سترين ، ستدهشين ، ستدهشين كثيرا

أصبحت أعينهم بعد الضوء الساطع فى فناء البيت ، لا تميز شيئا فى الظلام الذى يغرق الغرفة . لكأنهم غطسوا الآن فى ماء مظلم مريح . انهم لا يزالون مبهورين من سطوع النور فى الخارج

ونادى صوت من داخل . انها مريم التى تراهم ولا يرونها

ـ ياما ، ياما ، تعالى شوفى

ان تلك النبرة نفسها تشيع فى صوتها ، نبرة الفرح المكظوم

سألت عينى :

ـ ماذا ؟ ماذا يوجد ؟ ما الذى جرى فى بيتى ؟ اننى لم أخرج الا

منذ لحظة ، اننى لم اغب الا مدة الذهاب الى العين والاياب فورا ، فمالى أرى كل شيء قد اضطرب وانقلب . أكاد انكركما ولا اعرفكما. ماذا حدث ؟ قولا ؟

قالت ذلك بصوتها الحاد المنكر المعهود

قالت لها بنتاها :

ــ تعالى ، تعالى انظرى بعينيك .

ان عيوشة لا تفكر الآن فى كبت فرحها

فقالت لها أمها :

ــ فى اى جهة انت ؟

واستمرت مريم تنادى :

ــ ياما ، ياما .

ــ لاشك أن شيئا قد وقع . لقد جنت بنتاى .

قالت عينى ذلك ، ثم صرخت :

ــ ماذا يوجد ؟ هل تنويان أن تتكلما ام لا ؟

وعادت الصغيرة مريم تنق :

ــ ياما ، ياما .

فقالت الأم :

ــ غبية ، بلهاء ... مالها تصيح هذا الصياح : ياما ، ياما ؟

ان الضحك يصعد الى الصغيرة بلا نهاية . وراحت تردد كأنها الصدى :

ــ ياما ، ياما .

فجاءت صرخة من الطرف الآخر من الغرفة تقول :

ــ ماذا ؟

ورفع عمر صوته قائلا :

ــ انها تطلب الينا أن نسرع فننتظر . فلنذهب اليها لنرى ما عندها .

ــ اخرس انت .

هكذا قالت له أمه مهددة .

كانت عيوشة ترقص . انها تركض من اول الغرفة الى آخرها ، ملوحة بيديها ، منادية امها بعبارات رقيقة . ثم دارت حول نفسها

على قدم واحدة ، وظلت ترقص .

فلما ألفت أعينهم عتمة الغرفة ، رأوا مريم جالسة قرب سلة من الخيزران فى مثل حجمها ، وقد ادخلت ذراعها فى عروة السلة كما يمسك المرء بذراع صديق . ان هذه السلة ذات الكرش الضخم تبدو مترعة . لم ترعينى فى حياتها سلالا كهذه السلة . من أين تراها جاءت ؟ من أتى بها ؟ وما الذى فيها ؟

انفجرت عيوشة تقول وهى تترجرج :

ــ بطاطس . بطاطس ياما . بطاطس .

وتحولت كلماتها الى غناء لا ينفك يتسع حتى لكأنه غناء مجنون . ونظر بعضهم الى بعض مستطلعين ، وأخذت الأجوبة تتوالى .

ــ بطاطس .

ــ وفى السلة أيضا خرشوف .

ــ وكذلك فول .

ــ وطماطم .

ــ كل هذا .

ــ وفيها لحم ياما . لحم . لحم . انظرى ياما . صرة كبيرة .

ــ ألحم أيضا ؟

البنتان تدوران وهما تغنيان ، وتتجولان فى الغرفة ذهابا وايابا : بطاطس . خرشوف .. لحم .. لقد ذهبت السعادة بعقليهما .

وكانت الأم وحدها محافظة على هدوئها . بل كانت تبدو طائشة اللب من فرط الدهشة . ان الاولاد لا يعنيهم المصدر الذى جاء منه هذا الخير كله ، بطبيعة الحال . حسبهم ان هذه الأشياء كلها قد أصبحت فى بيتهم ، فهى لهم . أما عينى فقد ظلت خرساء لا تنطق بحرف .

لعلها كانت تتساءل من أين هبط عليهم كل هذا . ولاحظت بنتاها أنها سادرة تفكر . ولكنهما لم تتعبا من الصراخ والغناء والرقص حتى لقد أخذتا تتدحرجان على الارض . وأخيرا هدأتا .

فجذبت الأم بنتها الكبرى وأجلستها أمامها :

ــ احكى لى الآن كل شىء . من أين جئت بهذه الخضر وهذا اللحم . من أين جئت بهذه السلة كلها ؟

وتلاحق الاستجواب مده طويلة .
سؤال فجواب فسؤال فجواب . وكانت تقطع الحديث صيحة دهشة لا تنقطع : صحيح ؟ انظرى . وما كان أكثر صرخات السرور التى تشتمل على شىء من الشعور بالخجل ازاء هدية تبلغ هذا المبلغ من الروعة والكرم . وطفقت عينى نفسها تطرف بعينيها وتحرك يديها كما تفعل ابنتها

وكانت من حين الى حين تطلق صيحات تعبر عن الريبة : ها هاى ؟

أن الام والبنت تتبادلان هذا الصوت : ها هاى
الام تقول :
ــ ها هاى

فتقول البنت
ــ ها هاى
وسألت الام ابنتها :

هكذا ؟
ــ فأجابت عيوشة :
ــ هكذا

وعادت تروى القصة من جديد
ــ هكذا قال . كذا ، وكذا
انها تقص الحكاية مرة ثانية . وهذه هى الحكاية :

« صاحت احدى الجارات تنادى عينى ، ثم صاحت جارة اخرى تناديها أيضا . فأجابت عيوشة من أعلى بأن امها خرجت ، وسألت :

ــ من اجل ماذا ؟
فقالت المرأتان :

أحد بالباب يسأل عنكم تحت . ألم تسمعيه ؟ انه ينادى منذ ربع ساعة ، لا شك ان حلقه أصبح يؤلمه من فرط ما نادى . هو رجل .

ولم تكن المرأتان تريان عيوشة .
قالت عيوشة :

ــ لم أسمع شيئا . كنت مشغولة . لا يستطيع المرء ان يسمع من هنا أحدا . سأرى
واردفت عيوشة تتم رواية القصة :

ـ حقا انه رجل . كان يتكلم هكذا

قالت عيوشة ذلك ثم قلدت الرجل لامها ، باصدار أصوات كأنها النباح . وفجأة استبد بها ضحك شديد قطع حديثها . ثم أضافت :

ـ وقفت وراء الباب حتى لا يراني . ظننته شخصا غريبا . كنت لا اعرفه . وسألته من وراء الباب ماذا يريد . فأجابني بما ذكرته لك. انه ليس جميـــلا جدا ..

فقالت عيني غاضبة شاتمة :

ـ كوليرا تأخذك .. ما هذا الكلام وأنت في هذه السن .

ـ ولكن هيأته تدل على انه رجل طيب ، وكان يضحك : أليست عيني هنا ؟ خسارة .. انها ابنة خالتي . قولي لها ان مصـطفى ابن خالتك جاء يزورك . آه .. كنت اتمنى لو أجدها في بيتها . انت لاتعرفينني ؟ قولي لها انني مصطفى ، ابن لالا خيرة . آي ، يا ابنـة خالتي المسكينة . انني لم أرها منذ مدة طويلة جدا . هكذا كان يصيح بصوته العجيب . كان وجهه يدل على الطيبة . لا ادرى هل هنـاك كثير من الرجال في مثل لطفه وأدبه .

ومد مصطفى سلة الخيزران من شق الباب لعيوشة .

ـ كانت السلة من الثقل بحيث ان ذراعي كادتا تنكسران حـين حملتها وحدي . وذهب

ـ لاتنسي ان تقولي لامك انني ابن خالتها مصطفى . اننا جميعـا نقدر بنت خالتنا عيني . أسفا . اننا لا نراها كثيرا . عجيب هـذا الزمان . نحن في زمان لا يزور فيه الانسان أهله . مع السلامة يا أولاد ، كونوا في صحة جيدة .

وحين عادت عيوشة بالسلة الى الغرفة ، حرصت على أن لا تلفت اليها فضول الجارات .

ـ من حسن الحظ انه لم يكن بالفناء واحدة منهن . أليس هذا من حسن الحظ ، هه ؟

ـ آه .. انه ابن خالتي

ثم قررت عيني أخيرا أن تتكلم .

ـ نعم هو مصطفى ، ابن لالا خيرة . يا للمصادفات : اخرج في اللحظة التي يجيء فيها ، جدته وامي اختـــان شقيقتـــان . ماذا

قال أيضا ؟

مرة أخرى قصت عيوشة كل ما وقع ٠

ـ ان وجهه يدل على أنه رجل طيب القلب ، وكان يضحك ٠

هذا ما كانت تضيفه عيوشة الى قولها فى كل مرة ٠

وكانت الضوضاء المبهمة الغامضة التى تترجع فى البيت تحتفظ بحديثهما الذى لا ينتهى ٠

قالت عينى تدمــدم :

ـ أظن أنه يجب أو أدعو زينة لترى ٠

فاعترضت عيوشة تقول :

ـ هذا رأيك ؟ لا أدرى ٠٠ أما انا فلا أرى هذا الرأى ٠

ـ مسكينة زينة .. ان لها قلبا لا مكر فيه ولا خبث . انها تحبنا حبا صادقا ٠ لسوف يسرها هذا الخير الذى هبط علينا ٠

حاولت عيوشة ان تشرح رأيها قائلة :

ـ ذلك أنها اذا عرفت ، اذا عرفت ..

فقاطعتها أمها تقول مندهشة :

ـ ماذا .. اذا عرفت ؟ ..

قالت عيوشة فيما يشبه الانين :

ـ هوه .. ياما ..

ـ يجب أن أناديها .

ان عينى مصرة على أن تنادى زينة :

ـ اليست خير جاراتنا ؟ الم تكن طيبة القلب دائما معنا ؟ يجب أن أدعوها .. فى مثل هذه المناسبة .

وأخذت تنادى زينة بأعلى صوتها وهى فى مكانها :

ـ زينة ، زينة ، زينة ..

وكانت عيناها تبتسمان ابتساما لا يدرك .

فقالت عيوشة محتجة أيضا :

ـ انها ليست فى البيت .

وارتفع صوت من بعيد . ان زينة تجيب اخيرا .

ـ من ينادينى ؟

فأجابتها عينى :

- .. نحن ننتظرك .. تعالى .

وقالت للاولاد :

- سوف تجنون من الدهشة . سترون . ستضحكون كثيرا .

ونفد صبر عينى ، فأرسلت عمر الى جارتها التى لم تهرع لتلبية نداءها بالسرعة التى تريدها .

قال عمر للمرأة :

- تقول لك أمى أن تستعجلى .

فقالت زينة دهشة :

- أتراها تريد أن أركض ركضا ؟ ليس لى ساقان يابنى . ماذا هنالك ؟ لما لا تأتى هى ؟

وكانت زينة تستحث خطاها مع ذلك وهى تقول ذلك الكلام . فما أن وصلت العتبة ، حتى بادرتها بقولها :

- انظرى ..

- ماذا انظر ؟

وما هى الا لحظات حتى كانت جميع نساء دار سبيطار يتحدثن معا البعض واقف فى وسط الفناء ، والبعض على أبواب الغرف ، واللاتى يسكن فى أعلى مستندات بأجسامهن على الدرابزين الحديدى . شاعت النقنقة حتى لم تدع أحدا غير مشارك فيها : انهن يتحدثن عن السلة التى تلقتها عينى . وكانت عينى تشعر بالظفر ، وتحاول أن تخفى زهوها ، ولكن هذا الزهو كان أقوى منها ، فهو يظهر صارخا فى شخصها كله .

وتروح عيوشة تقص الحادث الخارق ، فتقاطعها أمها لتتولى أتمام القصة بنفسها ، والنساء اثناء ذلك لا ينقطعن عن التعليق على الحادث .

وفى المساء اجتمع عدد من النساء فى غرفة عينى ، ينصتن لها وهى تقص عليهن ماضيها ، شبابها . لقد كانت قبل زواجها سعيدة . وتحدثت عن جميع أقربائها ، الاحياء منهم والاموات . كان يوما متعبا ذلك اليوم

فلا عينى ، ولا ابنتها ، استطاعتا ان تنطقا بكلمة واحدة فى الغد لقد بح صوتهما من فرط ما تكلمتا أمس .

- ٢٣ -

حدث شيء من تبدل . اصبحت عيني في الايام التي تلت ذلك اليوم تجلس الى الجدة مدة أطول . المرأتان لا تتشاجران الآن . كفت الجدة عن شكاواها المتعبة . ان عيني لطيفة ، انها الطف النساء طرا . لقد دهش اولادها . ولكن هل لطفها هذا شيء جديد حقا ؟ لقد سبق ان رأوا المرأتين على وفاق . كانت عيني حين تعانق أمها تبدو هي الأم الطيبة القلب الرقيقة العاطفة . فلماذا يعجبـــون الآن اذن ؟ لماذا يبدو لهم لطفها شيئا جديدا ؟

كان عمر يفكر في الجدة . وكان يفكر في أمه ، ويفكر في الكلام الذي قالته عن الجدة كيف كانت . لقد عرفهم ذلك الكلام بأمور كثيرة عن الجدة . لقد لقيت هي ايضا كثيرا من العذاب .

كانت تقول عيني : ما اكثر ما قاست ! ما اكثر ماقاست !

أما ابنها فهو ابن عاق . لطالما ركضت في سبيله ركض طفلة صغيرة . كانت تقضي أياما كاملة في السوق تشتري لزوجة ابنها ما تأمرها بشرائه . وكانت لاتجد بأسا في ذلك . حتى اذا جاءت تأكل ، اخذ هو وامرأته يتشاجران . انهما يحاسبانها على ما اشترته قرشا قرشا ، فاذا لم يتوصلوا الى ضبط الحساب ، أخذ الابن يصرخ ، وأخذت امرأته تتظاهر بأنها تريد تهدئته ، وما ذلك منها في حقيقة الامر الا صب للزيت على النار . انها أفعى . أفعى اقول لكم . وتبتعد العجـــوز المسكينة عن المائدة وينهضان هما عن الطعام . وامي المسكينة لاتجرؤ أن تعود لتأكل وحدها . انها تنتظر طويلا . ولكن أحدا منهما لايعود . كانت تنهض دون أن تأكل ، وكان ابنها يذهب الى عمله دون أن يأكل . وكانت امرأته تبقى بلا طعام . حتى اذا خرجت حماتهـــا ، سخنت الطعام ، وطفقت تزدرده وحدها . هكذا كانت حياة أمي . وهاأنتم اولاء ترون الحالة التي آلت اليها الآن . لمـــاذا ؟

كانوا متحلقين جميعا حول الجدة ، ومعهم ابنة العم الصغيرة وبينما كانت ابنتها تقول ذلك الكلام ، كانت الجدة قد دفنت رأسها بين ركبتيها . وفيما كانوا جميعا يفكرون فى هذا المصير الذى كتب على الجدة ، قالت ابنة العم الصغيرة :

— حين يصبحون عاجزين عن الحياة ، فانهم يحســـون ذلك يفهمـــون حالا ...

لمـــاذا كانت بنت العم تقول هذا الكلام ، بينمـــا هم جميعـــا يغبطون أنفسهم على طول عمر الجدة التى كانت تقاوم الانواء وتصمد لمـــد الحيـــاة وجزرها ..

— انهم يترددون . ومن الصعب ان نعرف ما يدور بأنفسهم . ولكن الامر يقع هكذا .. انهم يفهمون ..

ما الذى كان يجبر بنت العم الصغيرة على أن تقول هذا الكلام ؟ وتوقفت أخيرا . الا أنها ما لبثت أن أضافت :

— حين يصبحون عبئا .. على الآخرين .. انهم عبء حتى على أنفسهم ..

ومدت يدها فأنهضت رأس الجدة . انها تحاول ان يظل جذعهـــا منتصبا . لعلها كانت تشعر بما كان يشعر به الاطفال : اذا اتجهـــوا بالكلام الى جدتهم وهى دافنة رأسها فى ركبتيها أحسوا أنهم لايكلمون أحدا . كانت منصورية تريد أن ترى وجهها . وتابعت تقول :

— واذا فهموا كان معنى ذلك انهم بدأوا يسلكون الطريق .

كانت الجدة اذ تسندها ذراعا منصورية ، قائمة متصلبة . غير ان ثقلا هائلا أخذ يجذبها فجأة الى أمام ، فانهار جذعها ، واســـتطال وجهها من فرط انخفاضه كأنه وجه حيوان .

وكان يبدو مع ذلك أن الجدة تفهم كل ما يقال من حولها .

لقد تقدم الصيف كثيرا ، واصبح لا يستطيع أحد أن يقترب من الجدة ، فان الرائحة التى تخرج منها لا تطاق . ان هذه الرائحـــة تستقر الآن حولها ، وما من شيء يمكن أن يبددها .

فمتى غربت الشمس انتشرت الرائحة ، والتصقت بأنسام الليـــل الرطبة ، وتسللت حتى الى أولئك الذين يقبعون فى الغرف . لقد اصبحت الرائحة تشيع فى دار سبيطار كلها ، ونفذت منها حتى الى

الحجارة .

وفي ليالي الصيف تلك ، كانت الجدة تطفق تثرثر وحيدة . انها تظل تدندن مدة طويلة ، ثم تأخذ تهمهم بصوت متهدج مرتج . لقد أصبح سكان البيت منذ مدة لايفهمون ما الذى تريد أن تقوله العجوز بهذا الكلام . ما من ليلة تنقضي الآن الا وتأخذ الجدة تحاور نفسها فجأة بغير سبب .

ان دمدمتها التائهة تتدحرج فى حلقها مدة طويلة ، محدثة صوتا كأنه صوت الامواج ترتد الى وراء .

ما الذى كانت تقوله ؟ ماذا كانت تريد ؟

وأدركوا أخيرا انها تتشكى . فهى تقول انهم يهملونها اهمال شيء غير ذى فائدة . وأصبح كلامها هذا الذى تقوله بلهجتها القديمة يستحيل الى انتحابات تملأ دار سبيطار . ليس يتشكى الآن انسان ، بل الليل كله يتشكى وكل ما يطوف فى الليل ، بل الدار كلها وكل مافى الدار الثقيلة الحزينة التى لاتجد الى العزاء سبيلا . ان صوت الجدة يشق الطريق لنازلة كانت منذ الازل .

وفى وسط هذا الهذيان ، هذيان الظلمات وآلام العالم ، كانت عينى تصيح بأمها أن اسكتى . فتجيبها الجدة :

ــ أهكذا يا بنتى ؟

وكان كلامها يعود عندئذ مفهوما .

ــ اسكتى يا عجوز النحس .

ــ أليس لك قلب ؟ ألست تشفقين على أمك التى ولدتك ؟ أتنامين وتتركينني ؟

وتنادى الجدة عمر وتقول له فى أنين :

ــ أنت وحدك ترحمنى .

ثم تسأله ان يجيء الى قربها .

لقد اشتد انتفاخ قدميها حتي صارتا الى ضخامة هائلة . انهما ساكنتان تحتها ، ملتفتان بالخرق . كان يندر أن ترضى الجدة عن وضع من أوضاعها فوق الكرسى ، فكان عمر يحاول ان يحركها بعض الشيء اذا استطاع : يمسك بها من أبطيها وينهضها قليلا . ولكن الجدة ثقيلة ثقلا فظيعا . ان عمر لا يستطيع وحده أن يفعل لها شيئا ، انه

لا يكاد يزيد على تحريكها قليلا ·

وفى مثل تلك الساعة من الليل ، كان يستحيل على عمر ان يواجه الظلام الحالك ليصل اليها .

أصبحت الجدة منذ مدة تتكلم كثيرا . ولاحظوا انها فى صراع خفى مع قوة كبيرة · دهشت الاسرة كثيرا · كانت المرأة العجوز ، رغم ما هى عليه من ضعف جسمى هائل ، تدخر هذه القوة الخرساء الصماء التى تهاجمها . لا شك ان قوة أخرى ، قوة لا يعرف كنهها ، كانت تساندها فى معركتها هذه .

وانتهى الصراع أخيرا دون أن يتوقع ذلك أحد . عادت الجدة نحو عالم الاحياء ، تاركة الضفاف الغارقة فى الضباب التى همت بأن تسقط عنها ، عادت هادئة راضية البال مطمئنة . ونظرت الى جميع الذين حولها فعرفتهم ولم تنكر منهم أحدا . ان ألقا يشع منها . انه نوع من الفرح ·

***

ان ابنة العم الصغيرة إمرأة قزمة دلفت الى الشيخوخة هى أيضا · ان شعرها الاجعد يبيض . وهى مبتسمة دائما . حقا ان وجهها يشبه وجه امرأة من الزنوج . لونها أصفر ، او قل انه شاحب قشب . وهى تمت الى الاسرة بقربى بعيدة ، ولعلها لا تمت اليها بأية قربى . ولكنها كانت تخاطب عينى بقولها : « ياابنة العم » . مسكينة منصورية . لقد كانت تحبهم حبا صادقا ·ولكنها قذرة قذارة رهيبة·ان ثيابها قدبلغت من سواد الوساخة انها تخيف حقا . كانت تحبهم على كل حال . انها لا تذهب الى الحمام كثيرا . ثم ان حالها لا تتبدل كثيرا حين تخرج من الحمام ، بل تظل سوداء ، لانها لا تغير الاسمال الوضرة التى علىظهرها·

وقد وصلت فى هذا الصباح الى بيت عينى ، واخذت تبتسم . هكذا كانت تعيش منصورية . تذهب الى هؤلاء ثم تذهب الى أولئك . هؤلاء يعطونها كسرة ، وأولئك يعطونها أشياء قديمة . ان وجودها لا يكلف احدا كبير نفقة ·

وفى ذلك اليوم كان فى بيت عينى طعام : قبضة من الارز قد حافظت عليها عينى محافظتها على بؤبؤ عينيها . اخرجتها اليوم من مخبئها ، لان المناسبة تستحق ذلك ·

قالت لاولادها :

ـ ما دامت ابنة العم الصغيرة هنا ، فالافضل ان نأكل هذا الارز اليوم . يسر المرء ان يعثر على أشياء خبأها ثم نسيها . لا داعى الى اخفاء هذا الارز مدة أطول .

وكان هنالك خضر . كان قد بقى شيء من الخضر التى جاء بها ابن الخالة مصطفى منذ ثلاثة أيام . ولكن هل تصدقون ان ابنة العم الصغيرة أرادت ان تتركهم حين علمت ان عندهم طعاما .

قالت عينى :

ـ أبدا ! ليست هذه القبضة من الارز شيئا ، ولكن ستبقين على كل حال .

لقد أدركوا جميعا ، عينى وأولادها ، ان ابنة العم لا تحرص الآن على الذهاب الا لانها عرفت أن عندهم طعاما . كأنها لم تأت الا لتأكل ثم تمضى . مسكينة ابنة العم الصغيرة . انها تبتسم لكل واحد منهم ، ولا تحفل بما يقولونه لها .

وكأن مائدة ملكية تنتظرهم جميعا .

كان واضحا انها ستذهب . ولكنها ظلت جالسة ، متربعة ، منتصبة الجذع . ان الاولاد يتأملونها . كانت تضحك ، وهى تنظر تارة الى عينى ، وتارة الى الاطفال .. ثم تعود فتنظر الى عينى . انها تنظر اليهم جميعا ، وتضحك لهم ضحكتها تلك الصغيرة التى تخرج من طرف الشفتين ، وتتصلب مزيدا من التصلب وهى تنتصب بجذعها . ومن حين الى حين كانت تقول :

ـ آه يا بنت عمى .

ثم تضيف :

ـ كم أحبكم جميعا يا بنت عمى ، انت وأولادك . يشهد الله أننى أحبكم كثيرا .

وكانت منذ وصولها قد ذهبت الى الجدة تراها وترتبها . لقد شدتها من ذراعها لتقف . فاستراحت عليها الجدة بضع ثوان . ثم أعادتها منصورية الى كرسيها المثقوب ، ونظفت لها وجهها ، وصففت شعرها .

كانت الجدة تسميها بابنة العم ، كما يسميها الاولاد ، وكانت لاتكل

من ترديد قولها ان منصورية تعنى بها .
ـ الله يحفظك برعايته يا بنت العم . الله يحميك بعنايته .
قالت منصـــورية :

ـ لاشك أن حياتنا طالت كثيرا . هل تعرفين ماذا يقول الناس ؟
يقولون ان من تطول حياته كثيرا يصبح عبئا على نفسه وعلى غيره .

ولم تقاطعها الجدة . أتراها سمعتها ؟ وعادت منصورية تقول :
ـ كان المرء ، وقد ألف أن يعيش ، لا يحب أن يهجر ما ألفه .
وصمتت . ثم رددت بصوت مختلف كل الاختلاف :

ـ صحيح .. الانسان يألف أن يعيش
وهزت رأسها . انها الآن وحدها الى جانب الجدة فى المطبخ .

ـ ما فكرت فى هذا الامر من قبل ..
وأرادت منصورية أن تعتذر . فزادت من انتصاب جـــذعها ، واستأنفت تقول للجدة وهى تميل على أذنها :
ـ آمل مع ذلك الا تؤاخذينى .
ثم صمتت مرة اخرى ، وزمت شفتيها ، فازداد وجهها صغرا على صغره . يالهذا الوجه المسكين ! لون اغبر ، وخدان كأنهما حفرتان . لا شك أنه لم يبق فى فمها أسنان .

ونهضت واقفة . غير أنها ترنحت . فما لبثت ان عادت تجلس . ونهضت مرة اخرى ، فرجعت الى عينى وأولادها . كانت لا تزال تبتسم . الا ما أعجب ابتسامتها ! امرأة هرمة تريد أن تموت .
ـ لعلهم على حق أولئك الذين يأكلون ولا يحبون من لا يأكلون .

لم يكن أحد يتكلم . ولم يكن قد سألها أحد شيئا . وهاهى ذى تقول هذه الكلمات الآن . لاشك ان هذه الكلمات ليست بنت الساعة لا شك انها لم توافها عفوا . لا شك انها قد شغلتها فترة من الوقت فلما خرجت من فمها الآن ، بدا عليها انها فى أشد الدهشة من أنهـا قالت كلاما كهذا الكلام . واتجهت جميع الانظار اليها تتفرس فيها . هل سألها احد سؤالا ، ما من أحد طرح عليها أى سؤال . ومع ذلك فقد كان ثمة سؤال ، غير أنهم لا يستطيعون ان يلقوه أو لا يعرفون أن يلقوه . ان السؤال قائم . ان رءوسهم تحمله وتجره . ولم يدركوا السؤال ، لم يتعرفوه الا حين تكلمت بنت العم الصغيرة على هـــذا النحو .

ـ انهم يخافون من الجياع . لان الجوع يبعث فى الذهن أفكارا ليست كأفكار جميع الناس . فيقولون : « لايعرف الا الشيطان من أين جاءتهم هذه الافكار الغريبة » . أليس صحيحا هذا ؟ أقول لنفسى أحيانا : قد يتعود الانسان أن يحيا ، وقد يألف ذلك ويميل اليه ، والحق ان الحياة سيئة جدا .. وشيئا فشيئا أقول لنفسى : لماذا لا يكون لنا نحن أيضا نصيبنا من السعادة . والطعام هو سعادتنا ، الا يمكن ان نحصل على الطعام فحسب ؟ لعل فى ذلك سعادتنا ، فان لم تكن هذه هى السعادة فعلام لا يكون فى ميسورنا ان نأكل قليلا ؟ وحين أقول : نحن ، لا اقصد المجتمعين الآن هنا ، بل اقصدهم واقصد غيرهم من الناس . خواطر .. أليس كذلك يا أولاد ؟

« أقول الذين لا يأكلون » هذا ما يقولونه . وربما كان صحيحا ، أليس كذلك ؟ على كل حال هذا شعورى . وهذا ما يجب أن يقال .

حملق الاطفال . أدهشهم ان يروا بنت العم الصغيرة تقول هذا الكلام الذى لا يفهمونه فهما واضحا . هذه أول مرة تطنب فى الحديث هذا الاطناب كله . لقد اذهلهم كلامها اذهالا شديدا . أما هى فقد خفضت رأسها كأنها خجلى مما قالت :

لابد من الاعتراف بأن شيئا جديدا قد وقع ، لابد من الاعتراف بأن الأمور قد تبدلت . امنصورية تتحدث على هذا النحو ؟ لقد تغير العالم اذن . من يعرف ما الذى تبدل ؟ ود عمر لو يفهم . لا شك ان بنت العم الصغيرة كانت هى نفسها لا تعرف .

وراحت منصورية تردد وهى خافضة رأسها :

ـ الا يقولون هذا ؟ الا يقولون هذا ؟

كان سؤالها يعلو كأنه أنين ، بينما كان يبدو لهم جميعا أن وجهها يتلفع بضباب وانه يزداد اسودادا . الامر واضح . انه ضباب الجوع ، ما فى ذلك ريب . حين يستولى هذا الضباب على أحد فانه يصبح فى لحظة من اللحظات عاجزا عن التخلص منه . ان عمر يعرف هذا . ويعرفه كل الذين جاعوا . حين يغطيك هذا الضباب تماما ، فانك لاتشعر بعدئذ حتى بالجوع . وبعد لحظة تتمزق حجب ، ويبدو لك كل شىء ملتمعا فى سطوع شديد : ترى العالم ، ولكنك تراه عندئذ مختلفا كل الاختلاف عن الصورة التى تركته عليها قبل أن تغوص فى

هذا الغمام الهادىء الصامت .

وأصبحت بنت العم الصغيرة لا تئن . لعلها قد وصلت الى تلك اللحظة التى يتبدد فيها الضباب فجأة ، فاذا العين ترى عالما هادئا يتألق بكل ما فيه من نيران . وارتعش جسمها ارتعاشات مبهمة . ان بنت العم الصغيرة تحاول بحركات مضطربة ان تتخلص من نسيج العنكبوت الذى يحيط بها . ثم استندت يداها اخيرا الى المائدة .

عرفوا انها تريد ان تنهض .

وقالت متنهدة :

ـ يجب أن اقوم .

فلم يعرف أحد ماذا يفعل .

لم يعرف أحد من الاولاد ، وكانوا الآن وحدهم معها فى الغرفة ، ماذا يقول لها .

المجهول يتساقط متزاحما من جميع اركان العالم ، يضرب الغرفة بأمواجه .

ان مصيبتها بالحياة تنتشر عليهم طافحة فائضة . ما كان يخطر لهم ببال أنها عميقة هذا العمق كله !

اذا كان الانسان يتعود ان يحيا ، فهل يعرف منذ متى صارت له هـذه العادة ؟ انه ليتفق للانسان ان يريد هجر هذه العادة التى ألفها . ومنذ تلك اللحظة ينفصل عن الحياة فلا تعنيه الحياة .

عجيب .. هذا ما ارادت ان تقوله .

لم يبق ثمة ما تنتظره ، ابنة العم المسكينة ، بل لم يبق ثمـة ما تخافه . ان الشيخوخة تشبه النوم . انها الآن نائمة ، والحيـاة هى التى تبدو لها حلما من الاحلام . وهذا جسمها يمحى منذ الان. لقد تبدلت هذه العجوز . انها الآن غير نفسها .

لعلها أرادت أن تقول هذا أيضا . ولكنها لم تقله .

وفى هذه اللحظة ظهرت عينى تحمل بين يديها اناء من آجر . انها قابضة على عروتيه بأطراف أصابعها . انه ساخن . كانوا يعرفون أن به أرزا قد طبخته الام بقطرة من الزيت وكثير من الماء . ان هذا يجعل الرز كالعجين .

ولكن ما قيمة ذلك ؟ انهم لايحفلون بأمور شكلية تافهة من هـذا

النوع . ولقد كان على الرز بصل ، وكثير من الثوم ، وكان عليه فلفلة ، وربما كان فيه طماطم ايضا ، وأوراق الغار . يا سلام . لاشك أنه طعام عظيم . ولكن الاناء صغير يكاد يستقر فى حفرة الكف. وكانوا ستة . آه لو كان عندهم خبز . اذن لبلعوا لقمة كبيرة من الخبز مع ملعقة صغيرة من الرز .

قالت عيوشة :

ـ الجو خانق . ولكن لا بأس . ان المرء لايريد خيرا من الاختناق اذا كان ذلك فى اثناء الطعام .

لقد كانت بنت العم على حق حين قالت ان افكارا غريبة تطوف فى الذهن أحيانا .

ولكن عمر كان يفكر :

ـ صحيح ان أفكارا كثيرة تطوف فى الذهن . ولكن هذه الافكار ليست من الغرابة فى شيء .. هى أفكار تقول حسبنا ماعانينا من جوع حتى الآن ، كفانا هذا الجوع كله الذى ذقناه . ان المرء يريد ان يعرف حقيقة الامور ، كيف تقع ولماذا تقع .. فهل هذه افكار ؟

قد تكون أفكارا . غير ان هناك ستة اشخاص ينهش الجوع لحومهم نهشا ، عدا الآخرين الذين يعدون بالآلاف والآلاف فى خارج هذه الغرفة ، فى المدينة ، وفى طول البلاد وعرضها . طبيعى ان تجول فى الذهن افكار

ـ ليس بالامر المعقد ان يكون هناك ستة أشخاص جياع . الجوع شيء بسيط : هو الجوع ، لا اكثر ولا اقل .

اذن ؟ اذن كان يريد أن يعرف ما هذا الجوع ولماذا هذا الجوع ؟ الامر بسيط فى الواقع . كان يريد أن يعرف لماذا يأكل أناس ، ولا يأكل أناس آخرون .

لقد شعرت عينى بلحظة من التردد والحيرة حين عادت من المطبخ حاملة طبق الرز ، فرأت بنت العم الصغيرة . واتجهت عينى الى المائدة التى كانت قد وضعت فى الغرفة بين جمهرة الاطفال .

ان لجميع الفقراء حواس مرهفة . كانت بنت العم الصغيرة تبذل جهودا من أجل ان تنهض . وحين صارت واقفة على قدميها وهى

تترنح قليلا مدت وجهها جهة الصغار . بدا وجهها تائها خلال بضع ثوان ثم بضع خطوات وهي تهتز وتتأرجح . كانت تقترب من الباب . وصلت الى الستارة ذات الازهار الحائلة ألوانها . ان ضوء النهار يجعل هذه الستارة شفافة . رفعت طرفا من الستارة ، ثم توقفت ، وأدارت وجهها نحوهم . كانت مائلة برأسها الى أمام . كانت تريد ان تندس تحت هذه الستارة التى لم تستطع رفعها الا فى كثير من العناء . لو رآها راء لقال أنها تعانى ألما فى البطن ، وأنها تنحنى هذا الانحناء لضغط ذلك الالم .

دمدمت تقول :

– تكلمت اليوم كثيرا ، تكلمت أكثر مما ينبغى . لا تؤاخذونى ولكننى لا أريد ان تمسكوا بى . لقد شكرتكم وحييتكم ، ويجب حقا أن اذهب .

لم يجبها أحد . وظلت هنالك .

كانت مصرة على أن تذهب . ومع ذلك لو رآها أحد لظن أنها تتردد . انها تنظر الى عينى التى كانت جالسة مع اولادها حول المائدة .

– صحيح .

أطلقت عينى هذه الكلمة كأنها شكوى مخنوقة . تحولت عينا بنت العم الصغيرة . لم ينبس أحد من الاولاد بكلمة .

أراد عمر ان يناديها ، ولكن لم يخرج من حلقه الا صوت أبح . عجيب . أهو أيضا ؟ وهمهم : م م م ... انه لم يقو على التخلص من شباك العنكبوت التى تحيط به . ولم تتكلم عيوشة ولا تكلمت مريم .

كانت عينى تتابع بنت العم بنظراتها ، فوضعت قبضة يدها على جلد الخروف الذى تجلس فوقه ، كأنما هى تهم بأن تنهض أخيرا لتمنع بنت العم الصغيرة من الذهاب . هذه هى الفكرة التى قامت فى رأسها : أن تحبسها عن الخروج وان تجلسها بين الاولاد .

وفكر الاولاد بينهم وبين أنفسهم متسائلين : ولكن أهذا كل شىء ؟ أيكفى ان تطلب منها البقاء ؟

ولم يرخ احد منهم أسنانه . ماعساهم يقدرون ان يصنعوا مادامت أمهم صامتة لا تقول شيئا ؟ مم عساهم يخافون ؟ أيخافون ان يحجزوها لتأكل معهم ؟ ..

قالت عينى :
ـ ابقى يا ابنة عمى . لن تذهبى بعد ان جئنا بالطعام . ابقى . هل ينتظرك فى بيتك عمل من الاعمال ؟
سألتها هذا السؤال الاخير من قبيل الادب واللياقة .
وتابعت تقول :
ـ لن تذهبى . لئن كان الطعام لايكفينا جميعا ، فليس لهذا من قيمة . الغداء قد حضر ، الطعام قد غرف ، وسيؤكل كله سواء ابقيت أم ذهبت .. يستوى ان نكون خمسة أو ستة ..
ثم قالت وهى تلف الاولاد بنظرة :
ـ انه ليسرنا ان تبقى .
وكانت نظرتها تشتمل على ابتسامة غريبة .
ـ سيسر الاولاد كثيرا ببقائك .
تنهد عمر . وعادت عينى تتكلم :
ـ ابقى . ليس وراءك أى عمل . لن تذهبى . لئن كان الطعام لا يكفينا جميعا ، فليس لهذا من قيمة . سيسرنا ان تبقى .. سيفرح الاولاد ببقائك ..
كان يبدو على عينى انها لاتستطيع انهاء ما بدات تقوله . كانت تتكلم للكلام . ولعلها كانت تتكلم . ذلك واضح . كانت الراحة تشيع فى قلبها .
واخذت منصورية تهمس كأنما هى تريد ان تتجه بالكلام الى عينى وحدها . ولكنهم كانوا يتحدثون جميعا فى آن واحد ، فى صخب ، فلم يسمع احد ما قالته . ولو انتبهوا الى تعبير وجهها لقدروا أنها كانت تريد أن تفضى اليهم بالسبب الذى يجبرها على الذهاب . لكن أحدا منهم لم يدرك هذا التعبير فى وجهها . لعل ذلك كله لم يكن حتى الان من قبيل الادب والملاطفة .
أما الآن فانهم يخافون أن تتركهم .
قالت بنت العم عندئذ بصوت واضح متميز :
ـ نعم ، هو ذلك .
وظلت الانظار كلها منصبة على طيفها .
وصاحت عينى دون ان تنهض :
ـ عودى لزيارتنا ..

— ٢٤ —

كان سكان دار سبيطار قد سمعوا صوت صفارة الانذار عدة مرات متتالية خلال الاسابيع الماضية . كانت صفارة الانذار هـذه تجرب باطراد . وقد قيل لهم ان الحرب ستندلع . لاشـك ان الحـرب ستندلع : لقد الفوا فى دار سبيطار هذه الفكرة . وكانوا يتحدثون فى الامر فى كل مناسبة .

كان يقال ان الذى سيشهر هذه الحرب رجل قوى جبار . ان شعاره وهو ذلك الصليب المعقوف الذى يشبه عجلة ، يملأ جدران المدينـــة مرسوما بالفحم أو بالطباشير . وكان هناك صلبان رسمت بالقطران وكتب الى جانبها : يعيش هتلر . ان الانسان يصادف هذا الصليب وهذه الكتابة انى توجه . ان هذا الرجل الذى اسمه هتلر قـــوى قوة هائلة لا يستطيع أحد ان يقيس نفسه به . وهو ماض يستولى على العالم كله . وسيكون ملك العالم كله . وهذا الرجل الذى يبلغ هذا المبلغ من القوة صديق للمسلمين فمتى وصل الى شواطىء هذه البلاد ، ادرك المسلمون كل ما يتمنون ، وحظوا بسعادة كبرى . انه سيحرم اليهود من املاكهم ، فهو لا يحبهم ، ولسوف يقتلهم . سيكون حامى الاسلام ، وسيطرد الفرنسيين . ثم ان الحزام التى يشد جسمه قد كتبت عليه الشهادة : لا اله الا الله ، محمد رسول الله . ان هذا الحزام لا يتركه لا فى نهار ولا فى ليل . وهو لذلك لا يمكن ان يغلب .

كانت تجارب صفارة الانذار قد دخلت حياة الناس ، فمتى اخذت تدوى قيـــل :

— هى ذى تصرخ .

ويروح انينها الطويل يدور فى الفضاء ويدور .

— هى اليوم مصابة بزكام .

— مصابة بزكام ؟

— بسبب الرطوبة .

ومع ذلك كان يخيل الى الناس حين يشتد صفيرها انهم يسمعونها اول مرة .

كان ذلك فى يوم من أيام شهر ايلول . الوقت بعد الظهر . عمر يمر بميدان البلدية • وها هى ذى صفارة الانـــــذار تطلق زئيرها الوحشى . انها موضوعة فوق سقف مبنى البلدية . بدأصفيرهاعريضا

ثم أخذ يعلو ويزداد حدة ، ويتصاعد نحو السماء كأنه قذيفة ، فيظل معلقا بها بضع ثوان ، ساكنا ، حتى لكأن السماء نفسها هى التى تطلق ذلك الصوت الحاد المزعج ، ثم اذا هو يهبط على حين غرة •

كان عمر لا ينسى أبدا ، حين يمر بالبلدية ، ان يصعد درجات سلم المدخل من احدى الجهتين ليقفزها دفعة واحدة من الجهة الاخرى . انه الآن على الدرجة العليا قد تجمد فى مكانه وذهل عن أمره .

تذكر فى لحظة واحدة الاحساس الغريب الذى سرى فيه حين انطلقت صفارة الانذار اول مرة . لكأن صفعة أو ريحا قوية هبت عندئذ على حين غرة . فاذا هو يرى نفسه فى أسفل السلم وقد اخذ قلبه يخفق خفقانا قويا • واندفع أخيرا فى الشارع ، وجعل يجرى

وقد استبد به خوف شديد . كان وهو يعدو فى خلال المدينة يرى رجالا ونساء يجرون فى جميع الجهات مثلما يجرى . هل كانوايعرفون لماذا يجرون ؟ هل كانوا يعرفون اين يذهبون ؟ وكانت النساء تبكى وتتلاقى وقد احمرت اعينهن . وتتابعن طريقهن ، وانتحاباتهن تترجع

فى ارجاء الشوارع . الرجال يبتعدون مسرعين . الابواب الحديدية تغلق . المخارج الرئيسية تغص بالاجسام . الناس يغذون الخطا . انهم يسيرون صامتين وقد اظلمت وجوههم . بعضهم يسأل مستفهما . فى اصواتهم ارتعاش يشيع الشك فى كل كلام يقال •

وما هى الا لحظة حتى خلت الشوارع . ان عمر يعدو فى مدينة مقفرة . وهو من حين الى حين يصادف رجلا من رجال الشرطة ، أو كلبا تائها . ياله من فراغ . . ان الحياة قد انسحبت من مدينة تلمسان التى تغرقها شمس باهرة .

أصبحت المدينة فجأة اشبه بمدينة قد خلت من الحياة منـــذ آلاف السنين . شوارعها الواسعة هى الآن طرق خالية قديمة صمتت ضوضاؤها منذ زمان بعيد . مبانيها معابد ديانة مندثرة . صمتهـــا

الواسع هو سكينة الموت يتلألأ فى وضح النهار . لقد غارت حياة تلمسان فى الحجارة .

ان هذا الصمت اليقظ وهذه الوحدة العارضة اللذين جاءا بعد ذلك الاضطراب الاول ، يحملان الى عمر أصداء مهددة . هكذا ظهر الخطر ظهوره المباغت وسط هدوء غريب .

كان عمر يزداد اقتناعا بأنه لن يصل الى دار سبيطار ، وبأنه لن يفرغ من العدو فى خلال هذه المدينة التى كانت تستحيل ببطء الى سور رهيب . لابد ان شيئا سيقع له قبل ان يصل الى البيت . كان الخطر يبدو له شبحا عاليا يضم المبانى والحدائق بعضها الى بعض . ويسرع عمر . ان أنفاسه لتتقطع من فرط الجرى . ان الشبح الضخم يلاحقه في وثبات مفاجئة متقطعة . فيشعر الطفل بوجوده فى ظهره . ان الكارثة التى استدعوها بهذه الصفارة قد وصلت أخيرا .

ووصل عمر الى دار سبيطار ، ودخل مسرعا ، فلما صار امام امه استلقى بوجهه على الارض ، واستطاع اخيرا أن يجهش باكيا وقد أخذ جسمه يرتعش ارتعاشا شديدا . فتناولته عينى بين ذراعيها وشدته اليها . فاذا باضطرابه يهبط فجأة . ان فراغا مريحا يستولى عليه الآن . هو ذلك الفراغ نفسه الذى كان يشعر به منذ قليل . اخذ عمر يصغى الى دقات قلبه السريعة . وانتظر قليلا ، ثم اخذت عيناه تنفتحان شيئا فشيئا . انه ليجد نفسه على حدود بلادعجيبة . انه يشعر بأنه يستيقظ من نوم . لم يبق لشىء من قيمة . كأن العالم قد تمزق بزئير ذلك الوحش الذى لا وجه له .

***

— هى نهاية العالم ، هى نهاية العالم .

ان المرأة التى قالت هذا فى اضطراب ، كانت تتجه بالكلام الى عينى ، ثم اضافت :

— فى القرن الرابع عشر ، ما ينبغى لاحد أن يحاول النجاةبنفسه . هذا ما قيل . ألسنا فى القرن الرابع عشر ؟

قالت عائشة العجوز :

— بلى ، نحن فى القرن الرابع عشر .

— أيفنى العالم كله اذن ؟

ـ نعم يفنى العالم كله ايتها المرأة .
ـ العالم كله ، ونحن أيضا ؟
ـ جاء يوم الحساب .. جاء يوم القيامة ..

وخرست النساء ورفع بعضهن الاعين الى السماء وتدوى فجأة ضجة رهيبة . فترتمى عاتكة على الارض فى وسط الفناء دفعةواحدة

ويقوم حولها هرج ومرج . بعضهن يحاول ان ينهضها وان يهدئها، وهى تلهث وتتخبط فى هياج شديد ، ويسيل لعابها من فمها وتقول فى حشرجة :

ـ القرن الرابع عشر .. الشيطان ، الشيطان .

حتى اذا نقلت الى غرفتها هدأت فى طرفة عين . ان عاتكة تصيبها نوبات كثيرة ، فاذا انتهت النوبة من هذه النوبات نسيتها ولم تذكرها وعادت الى حديثها المألوف ، حتى لقد تبدو بعد النوبة أقرب الى المرح .

واستأنفت النساء حوارهن :

ـ هذه علامة على أن الحرب واقعة .
ـ حتما .
ـ أية علامة ؟ ما وقع لعاتكة ؟ انه ليس علامة على شىء .
ـ هذا رأيك أنت .
ـ كفى خرافات . انها دائما هكذا ، عاتكة . نحن نعرفها منذ مدة طويلة . لماذا يكون هذا علامة على شىء ؟
ـ صه .. صه .

من أصوات رجال ترتفع فى الشارع الصغير قرب البيت . هذا صوت عميق وقوى . انه صوت رجل متقدم فى السن . وادركت النساء انه صوت بنى صلاح .

ـ عودوا الى بيوتكم . كل هذا الذى يحدث لا شأن لكم به .

ويجيبه آخر :

ـ هى الجرب مع ذلك . ليست الحرب بالامر الهين .

ويجيب ثالث :

ـ جاء يوم الحق .
ـ نعم هى الحرب . لا يمكن انكار ذلك .

واستؤنف الحوار بمزيد من الارهاق :

ـ أصبح الناس في أيامنا هذه لا يؤمنون بالله . أصبحوا لايؤمنون بالله .. هذه كارثة .

ـ هي كارثة حقا .

ودمدم سي صلاح في رصانة :

ـ الآن عودوا الى بيوتكم . أولياء أمورنا يعرفون ما يفعلون .

ـ سمع الله لك . ولكننا على ثقة من ذلك .

ـ لا .. لا .. نحن الذين سنجنى المصائب والكوارث . علينا نحن ستقع المصائب والكوارث .

ـ علينا بأعمالنا نهتم بها وننصرف اليها . ان لدينا أعمالا سنظل منهمكين فيها الى آخر العمر . دعونا من هذا الكلام كله .

وفي دار سبيطار خرجت عاتكة مرة اخرى من غرفتها مشرقة الوجه ، وهي تقول لاهثة :

ـ هي نهاية العالم

ورددت النساء وقد روعتهن النبوءة :

ـ بعد أربعين يوما .

ظلت عاتكة تعول في وسط البيت وهي تحرك يديها باشارات كثيرة . وهرعت بنات هذه المرأة الممسوسة الى أمهن ، فجررنها الى الغرفة . لقد أصيبت في هذا اليوم بنوبتين اثنتين . لم يسبق ان وقع لها ذلك أبدا من قبل .

***

حين هبط الليل خرج عمر لشراء قرص من الخبز من الفرن العمومي .

كان خروجه لشراء الخبز من أحب الامور الى نفسه ، اما خروجه لشراء اى شيء آخر ، فكان يضيق ذرعا به ، ويتهرب منه وما نفك يقول متذمرا حين يكلف به :

ـ دائما انا ؟ أليس في البيت احد غيري ؟ لماذا لا تكلف عيوشة او مريم ؟

وبقدر ما كان يحب التملص من الاعمال الاخرى ، كان هذا العمل يرضيه ويطيب له .

ووصل عمر الى الفرن • ما اشد فرحته برؤية الارغفة ممدودة فوق الارض على ألواح من الخشب وصفائح من المعدن تنتظر ان يدسها في الفرن رجل مسود يخرج كتفاه وراسه من الحفرة التى فى القاع.

ان الفران واقف أمام الفرن المتأجج يحرك ذراعيه بغير انقطاع ، يدفع الى الداخل جاروفا طويلا من خشب ثم يسحبه • انه يدخل الجاروف محملا بأقراص العجين ، ثم يخرجه وقد فرغ منها . ان الخبز في هذه المغارة العميقة بياضا غامضا ، ويملأ اركانها الغائرة فى الظلام برائحته الذكية •

كان عمر يتلبث امام هذا المشهد ، لا يمله ولا يكل منه . انه منظر منعش رائع .

وكان يجب ان يحمل الى البيت قرص الخبز وهو لا يزال ساخنا تطقطق قشرته • فينتزع منه أثناء الطريق نواتئه الصلبة وما تحرق من زواياه ، ويأخذ يقضمها . كان لايسمح لنفسه ان يعود الى البيت بالرغيف ناقصا ، والا كان يسيء القيام بالعمل الذى ندب له . الا ماكان اكبر سروره بحمل الرغيف الطيب الى البيت ! ان عمر يحتضن الرغيف بصدره ، فالرغيف يدفىء صدره وينشر رائحته الطيبة التى تثير شهوة الاكل •

كانت المدينة لا تزال مزدحمة كخلية نمل • لكأن جميع سكان تلمسان قد تواعدوا على اللقاء فى الشوارع . ان الشوارع تغص بالناس

فبعد ذلك الفراغ المفاجىء الذى قام بعد الظهر ، خرجت من الخوف جماهير الرجال والنساء والاطفال وراحت تمشى فى شوارع المدينة على هون . والغسق القائم المذهب الذى يرين على أمسيات شهر ايلول كان يحمل عمر نفسه جوا من الجد والرصانة • ان احساسا جديدا بالاشياء والكائنات التى نسيت الى ذلك الحين ، قد قام فجأة، فهو يقرب الناس بعضهم من بعض . كل هذا كان يمكن ان يبدو مضحكا بالامس . ان سكان تلمسان على ميعاد . انهم يخرجون الى الشوارع على اتفاق : ان من السهل أن يتخيل المرء ان هناك أمرا على جانب عظيم من الخطورة يجب ان يقوله الناس بعضهم لبعض . غير انهم لا يزالون ينتظرون الشخص الذى يتقدم الى الكلام أول المتقدمين•

ولم يحدث هذا طبعا . ما الذى كان هذا الجمهور الضخم يريد ان يعبر عنه ؟ أكان يريد أن يحتج على قيام الحرب ؟ اذن لماذا ، لماذا يصمت ولا يتكلم ؟ انه يرفع رأسه فى بطء : انه متأكد من نفسه ، متأكد مما يحمله فى نفسه ، ولئن لم يكن بارعا فانه لقوى شرس. لقد ساعدوهم دائما على أن لا يفكروا . والآن تنبجس أمامهم مغامرتهم مليئة بالوعيد ، غامضة عنيدة ، ويظل جميع هؤلاء الرجال وجميع هؤلاء النساء عراة أمام أنفسهم . كانوا قد تركوا قلوبهم متهيئة ، فى راحة . ولكن الشقاء يلمسهم الآن بقبضته ، فيستيقظون . ما عدد الذين كانوا يحسون عندئذ انهم أحياء ؟ ها هم اولاء يأخذون يضحكون من هذا اللقاء ، رغم ان مرارة لا تزال فى افواههم .

حين اكتشف عمر هذا الجمهور الذى يكاد يكون سعيدا ، نسى الخبز الذى خرج ليشتريه . وجرفه هذا السيل العارم من الناس ، ولم يشعر بأى خوف رغم انه أصبح بعيدا عن البيت . لقد اندس فى قلب الحشد . استسلم رغم قصر القامة وضعف الطفولة ، لهذا التيار الذى كان يجتازه ويحمله فى ذلك الاتجاه نفسه .

لم يعد طفلا . لقد أصبح جزءا من هذه القوة الخرساء الكبري التى تؤكد ارادة البشر ضد دمارها . كانت جميع الشوارع تصب هذا الحشد فى ميدان البلدية . فهنالك كان يجتمع سكان تلمسان . ان الوف الاقدام تقرع ارض الشارع ، فتحدث ضجة صماء لا تنفك تتردد الى غير نهاية . وأصوات الناس كأنها همهمة مصنع يسمع صريف آلاته من بعيد وهى فى أوج حركتها ونشاطها . ان أضواء المدينة لم تسطع بعد ، والحشد يسير فى ظلمة لا تزال تشتد . اصبحت الوجوه لا ترى ، ولكن الناس يمشى بعضهم حذو بعض . انهم يتعارفون بأصواتهم ويتواصلون من فوق الهامات :

ـ أأنت هناك يا كريمو ؟

ـ نعم ، وأنت ؟

ـ أنا ايضا هنا .

ـ أهى الحرب أم ماذا ؟

ـ هى الحرب

ثم يقوم حديث آخر .

ـ هى الحرب ياقادر ، يازنيم ، فما عساك صانعا ؟
ـ أصنع ما يصنعه سائر الناس . نذهب الى الجبهة .
ـ وهل تعرف على الاقل كيف تمسك بندقية ؟ ماعساك صانعا اذا أعطيت بندقيـــة ؟
ـ تأتى أنت فتعلمنى ..
وهذان رجلان من الفرنسيين يتكلمان قرب عمر :
ـ اذن لقد غرروا بنا ، هؤلاء الخنازير .
ـ قلت دائما انهم كانوا يكذبون حين يحلفون ان الحرب لن تقوم. لقد قالوا انهم قد انتهوا الى اتفاق فى ميونيخ .
ـ يجب ان نعرف الآن كيف نتخلص من الورطة . ان الحـــرب فى ظهرنا الآن .

كان يبدو للناس ان لعدم اضاءة الانوار معنى أيضا . انهـم الآن يضفون معنى على أى أمر من الامور ، على كلمة تلقى عرضا ، على المصابيح التى لا تشتعل ، على سير هذا الحشد سيرا متقطعا .. لذلك ما ان أضيئت شوارع المدينـة فجأة ، حتى انطلقت جميـع الصدور تقول : ها .. كأنما هى تخففت من حمل رهيب .

والواقع أن مصابيح الشوارع قد أضيئت ذلك المساء فى موعدها لم تتأخر عنه .

وانتهى الامر الى مايشبه الاحتفال بعيد . ان عبقا مســكرا يرغى الهواء . والناس يتحركون ويضطربون ، كأن أمواجا كبيرة تحملهـم على صدرها . انهم يتكلمون ويضحكون ضحكا قويا .

عاد عمر الى البيت فى ساعة متأخرة . فلما رأته امه سألته بصوت حانق :
ـ اين الخبز الذى ذهبت تشتريه ؟
آى ! ان عمر كان قد نسى الخبز نسيانا تاما . قال لنفسه : اين كان عقله ؟ سوف يستأنف الصراخ ، والشتم ، والضرب ..
كانت أمه خارجة عن طورها .

ـ قل لى ، اين كنت ؟ اين كنت حتى هذه الساعة بينما نحن ننتظر ؟ قولوا لى : الا يستحق القتل ، هذا الكلب المتسكع .. هيا اذهب حالا لاحضار الخبز . وانا انصحك ان لا تضع قدميك فى هذا البيت ان لم تعد بالخبز .

لقد قامت الحرب ياما .

ـ الأن الحرب قامت لا نأكل ؟

لم يكن يريد أن يقول هذا . ان امه لم تفهـم . ولم يتوصل الى التعبير عما بذهنه :

ـ الحرب .. الحرب ..

لم يستطع ان ينطق بأية كلمة أخرى .

أتراك اصبحت معتوها ؟ مفهوم انها حرب .

وكانت الجارات لا تزال تثرثرن رغم أنهن فى ساعة متأخرة من المساء :

ـ حين كان ابناؤه وبناته يذهبون الى حفلات الرقص ، ولا يفكرون الا فى زينتهم ، كان الالمانى منهمكا فى صنع الاسلحة . وهذه هى النتيجة الآن .

ـ ياله من شقاء يحل بفرنسا المسكينة .

ـ ما كانت تستحق هذا

مضى عمر الى الفرن العمومى يعدو متاهة الشـوارع الصـغيرة المعتمة : ان الفرن مغلق . الساعة الآن هى التاسعة على الاقل . ان عمر يعرف أين يسكن صاحب الفرن : انه يسكن فى القاع من طريق مسدود تائه . ولكن يستحيل على عمر أن يخاطر فيذهب الى هذا البيت وحده ، ولو قطعوا رأسه .

وقف عمر عند مدخل الطريق ، آملا أن يظهر أحد المارة ، فيرضى أن يقوده الى ذلك المكان . وأخذ يسائل بنظراته الشارع . ما من أحد يمر . وراح ينادى الناس الذين يراهم مرورا من بعيد ، يناديهم بصوت مرتعش ، ويبكى يائسا . هل يمكن أن يصحبه أحد الى بيت صاحب الفرن .

ومر أخيرا رجل عجوز ، فأمسك بيد عمر ، ومضى به الى بيت الفران ، وهو بيت ذو باب مربع .

واضطر عمر أن يطرق الباب طرقا قويا خلال مدة طويلة قبل أن يفتح له .

همهم صوت من داخل البيت يسأل :

ـ من ؟

أنا عمر .

فتأفف صاحب الفرن تأففا شديدا وقال له :

ــ أفي مثل هذه الساعة تأتي لاخذ خبزك ، يا شقي ؟ الى هنا ، الى البيت ؟ هيا امش الآن · وتعال لاخذ رغيفك في الغد من الفرن ·

فأخذ الطفل ينتحب استدرارا لشفقة قدور . ولكن قدورا عاد يغلق الباب فى وجهه دون ان تلين قناته . فمنعه عمر من اغلاقه بالوقوف امام المصراع الثقيل ، واخذ يبكى بدموع صادقة ·

ــ عم قدور ، الله يخليك ، تعال اعطنى خبزى ؛ الله يغنيك ، ان شاء الله تحج الى مكة ·

يا له من شيطان ·· انه لم يستجب لدعاء الصبى الا بعد لأى وعلى مضض . خارت قوى عمر من فرط التوسل والتضرع ، وفقد كل أمل فى أن يراه يخرج من جحره الاسود .

***

حضن الصبى رغيفه بكلتا يديه فى صـــدره ، ومضى مسرعا الى البيت . كانت الشوارع الصغيرة الخالية قد عاد اليها وجهها الليلى. ان عمر يسير دون تعجل حقيقى ، ولا يشعر بأى قلق . متنبـه الى الهدوء الذى يحيط به كأنه ماء مهدىء . ان شعورا بالامن والطمأنينة قد استولى عليه · انه يحس بأنه فى عالم أخوى · الازقة تنفتـــل ويتداخل بعضها فى بعض الى غير نهاية . ومن حين الى حين تحفر فيها مصابيح الكهرباء بقعا عميقة من نور . ان هذه الاضاءة التى تصطدم بجميع البيوت المواربة ترسم منظرا كأنه لعبة من لعب الصبر والسر. وارتعش عمر . أمن فرح ؟ لا ندرى . ومع ذلك فانه لفرح هـــذا الذى يهز قلبه . ان هذا الاحساس يسرى فيه أمواجا واضحة . من أين جاءته هذه السعادة التى كانت منسية فى نفسه ؟ الحرب : تخيل عمر ذلك الحشد الكبير الذى كان يطالب من اعماق نفسه باشـــعال المصابيح · ما كان اعظمها من راحة حين اشتعل النور فى الميــــدان فجأة .. الحرب .. كان عمر لايعرف ماذا تعنى كلمة الحرب . ان الحرب ، وشيئا آخر كانا يشيعان فى قلبه فرحا خفيا . ان عمر يمخر عباب احساسات تقوده الى شاطىء أرض مجهولة . ان ما كان يملأ جو المدينة من جدة فى ذلك الاصيل لا يزال يختطف فكره · عجيب لقد أحس فجأة بأنه شب عن الطوق منذ أخذت تدوى صرخات صفارة الانذار . ولئن ظل يعرف انه طفل ، فانه فهم ما معنى ان يكون المرء

رجلا . غير ان هذا الاتصال الحميم المفاجيء بما سيكونه فى المستقبل قد زال بسرعة . لقد فتح عمر عينيه مرة اخرى على افق الطفولة الذى يعيش فيه ، ثم لم يخطر بباله ان يرتد نحو ذلك المستقبل الملفح بظلام لا يمكن ان تنفذ فيه أية قوة .

ووصل عمر أمام باب دار سبيطار . ان الباب مفتوح . وصاح عمر بأعلى صوته ينادى أخته :

عيوشة ، عيوشة .

وابتلع فم الظلام الكثيف العميق نداءه .

انتظر عمر . ثم نادى مرة أخرى :

ـ عيوشة ، لماذا لا تأتين ؟ أنا هنا .

وانقضت بضع ثوان ، ثم سمع الصبى وقع خطا قدمين عاريتين على البلاط .

قالت له اخته من آخر الدهليز :

ـ ادخل .

ـ حمارة . الا تسمعين حين تنادين ؟

ـ وأنت أيها البنت الصغيرة ، هل من الضرورى ان تأتى امرأة لتقودك ؟

ـ كفى .. غبية .

وانطلقت ضحكة صغيرة فى الظلام كأنها شرارة . وقالت عيوشة ساخرة :

ـ انظروا كيف يجيد اصدار الاوامر . ياله من رجل !

وحين صار عمر فى وسط البيت شعر براحة . ان الضوضاء [illegible] التى تحرك دار سبيطار فى أول الليل تصل الى عمر من الحجرات المنارة . ودفع الصبى اخته دفعة مفاجئة ماكرة فجعلها ترتقص وتتواثب فى فناء البيت . ثم سار نحو الغرفة . ها هوذا يزيح ستارة المدخل ويمد قرص الخبز الى امه :

قالت عينى :

ـ عفريت !

أدرك الصبى ما يختفى وراء هذه الشتيمة من حب وحنان ، فابتسم وقعد مع القاعدين أمام المائدة ، واخذ يراقب امه وهى تقطع الخبز على ركبتها

تمت

هذه الروايـة

« الدار الكبيرة » هى الجزء الاول من ثلاثية الكاتب الجزائرى محمد ديب. وقد نالت هذه الرواية باجزائها الثلاثة شهرة عالمية واسعة واحتلت مكانا بارزا فى الادب الروائى المعاصر كله . وقد كتب محمد ديب ثلاثيته الروائية باللغة الفرنسية ، فالفرنسية هى اللغة التى يكتب بها هذا الكاتب الجزائرى البارز ، فهو عربى جزائرى ، ولكن فترة الاستعمار الفرنسى للجزائر تركت آثرها على جيل محمد ديب فتعلم الفرنسية ولم تعلمه لغته القومية ، ولكن محمد ديب مع ذلك يحس بنبضات قلب وطنه الجزائرى العربى ، ويصورها فى آدبه تصويرا فنيا رفيعا ، انه يكتب بالفرنسية ولكنه يحس ويفكر بعقل الجزائر وقلبها و « روايات الهلال » تقدم اليوم الجزء الاول من هذه الرواية الرائعة على أن تقدم فى الشهرين القادمين الجزأين الثانى والثالث من الرواية نفسها ، وبذلك تكتمل هذه الثلاثية الممتازة بين يدى القارىء العربى ، وقد قام بترجمة الرواية بأجزائها الثلاثة الاديب العربى المعروف الدكتور سامى الدروبى سفير سوريا فى القاهرة . ويملك الدروبى — كما عرفه القراء العرب منذ سنوات طويلة — ثقافة واسعة ومعرفة عميقة باللغتين الفرنسية والعربية كما يملك ذوقا أدبيا رفيعا يعتمد عليه دائما فى اختيار ترجماته المختلفة ، وقد استطاع سامى الدروبى — بهذه الامكانات الكبيرة التى يملكها — ان يقدم للمكتبة العربية آثارا فكرية وأدبية ثمينة من بينها هذه الرواية التى تقدمها كاملة باجزائها الثلاثة ، والتى تظهر على التوالى ابتداء من هذا الشهر فى « روايات الهلال » .

١٠ قـروش